

مختارات من كتاب كليلة و دمنة

تعريب عبد الله ابن المقفع

تجميع: فيتامين سي

شبكة روايتي الثقافية

تعريف كليلة و دمنة

“من كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا، فإنما مثله فيما يبذل و يعطى، كمثل الصياد و إلقائه الحب للطير لا يريد بذلك نفع الطير.”

هذا الاقتباس من كتاب دليلة و دمنة، و حينما نتحدث عن كتاب دليلة و دمنة نتحدث عن حكايات جميلة و قصص مثيرة تملؤها الإثارة و السرد الرائع فيما بين الحيوانات و بعضها، فتلك القصص مليئة بالنور و الحكمة و أساطير الحيوانات، و كل قصة في كتاب دليلة و دمنة بداخلها قصص أخرى تروي حكايات أشبه ما تكون بالمدينة الفاضلة المليئة بالخير و الأخلاق .

كليلة و دمنة هي: قصص تعود إلى القرن الرابع الميلادي، حيث الفيلسوف بيدبا حيث كتبت عبر البراهما ونشو باللغة السنسكريتية،

وفيما بعد عرفت في عصر بنجا تنترا بالأبواب الخمسة .
و في زمن كسرى أنو شروان في بلاد فارس القديمة إستدعى
كسرى أنو شروان أحد المثقفين لديه و مستشاره، و كان يعرف
ب بروزيه لترجمة كتاب كليله و دمنه، أو ما كانت تسمى في ذاك
الوقت بالأبواب الخمسة من اللغة الهندية أو اللغة السنسكريتية إلى
اللغة الفارسية القديمة، اللغة التي كانت تسمى الفهلوية، و لم
يتوقف بروزية عند الترجمة إلى اللغة الفهلوية القديمة للفرس
فقط، بل إنه جعل من كتاباته فصلا آخر يضاف إلى كليله و دمنه،
بمعنى أنه أضاف حكايات أخرى لم تكن موجودة في كتاب كليله و
دمنه الأصلي .

جاء كتاب كليله و دمنه إلى بلاد العراق، و جاءت تلك الحكايات
باللغة الفهلوية أو ما يعرف باللغة الفارسية القديمة، حيث بغداد،
حيث الحضارة، حيث الرافدين، حيث مدينة الكتب و العلم، فوقت
في يد عبد الله بن المقفع الذي ترجم تلك الأبواب الخمسة أو ما
تعرف لدينا بدليله و دمنه، فلم يقتصر على عبد الله بن المقفع
الترجمة فقط، بل إنه أضاف إلى كليله و دمنه أربع فصول تحت
باب آخر يسمى البحث عن أمر دمنه .

لقد مر الزمان على كتاب دليله و دمنه بزيادة و ترجمات عديدة،
حيث أن تلك الترجمات القديمة تلاشت، ولم يتبقى منها سوى
النسخة العربية من كليله و دمنه لأبن المقفع، و لم يعرف بعد أين
تلاشت ترجمات البراهما ونشو و بروزية، كما أن هناك كاتب
يسمى عيزرا بن يعقوب ترجم كتاب ابن المقفع دليله و دمنه إلى
اللغة العبرية، كذلك صيغت بشتى الأجناس و الأصناف الأدبية ما
بين القصص و الروايات و الترجمات و الشعر .

كليله و دمنه كتاب قديم أسطوري خيالي يتناول حديث الحيوانات
وسردهن للحياة المثالية في كتاب جميل يدور حديث الحيوانات

فيه عن الخير والحكمة و الأخلاق الحميدة في بناء المجتمع
المتداخل بحياة اجتماعية ترتقي بآبائه اذ ينصح الكثير من
المفكرين والمثقفين ان تدرس تلك الحكايات بين الأطفال حول
العالم.

تلخيص كليلة ودمنة

يعتبر كتاب كليلة و دمنة من أكثر الكتب العالمية شهرةً و التي
لاقت اهتماماً واسعاً من قبل الدارسين و الباحثين، و تروى قصة
كتاب كليلة و دمنة على السنة الحيوانات و الطيور، و هو كتاب
قديم يعود إلى العصر العباسي، وهو كتاب هندي الأصل، و قد كان
في الأصل يسمى ب الفصول الخمسة، حيث قام عبد الله بن المقفع
بترجمته إلى العربية، و أضاف عليه قصص أخرى .

شخصيات كتاب كليلة و دمنة: حيوانات برية فالأسد يلعب دور
الملك، و خادمه ثور اسمه شترية، و كليلة ودمنة هما اثنان من
حيوان ابن آوى، و شخصيات أخرى عديدة، و تدور أحداث القصة
في الغابة و على السنة هذه الحيوانات، حيث ترمز هذه الحيوانات
إلى شخصيات بشرية في الأصل، و تحكي قصة العلاقة بين الحاكم
و المحكوم، كما أنا تدعو إلى التمسك بالأخلاق و الاتصاف
بالعادات و المبادئ الحسنة يرويها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم

كتب الفيلسوف بيدبا هذا الكتاب للملك دبشليم؛ لأنه كان ظالماً و
تجبر على رعيته، فوجد بيدبا الحكيم بحيلة هذه الفكرة؛ لكي تمنعه
من ظلم الرعية ويهديه إلى العدل والإنصاف، فذهب إليه و أخبره
الحكم والأمثال التي تحكي عن العدل و الانصاف، فقام بزجه في
السجن، ثم دهش بحكمته؛ فأخرجه من السجن، و أخذه لكي يرد

مظالم الرعية ويحل مشاكلهم، و يعدل بين القوي والضعيف، وعندما أتم بيدبا ما أراد من رفع الظلم عن الرعية، تفرغ لوضع كتب السياسة ومبادئ الحكم، واستمر دبشليم الملك يعمل كما يشير عليه الفيلسوف بيدبا فاستقام له الحكم و أنقذت الرعية، وتفرغ الملك للنظر بأمور الفلسفة والحكمة و العلم، فطلب من بيدبا أن يكتب له كتاباً بليغاً فصيحاً يستفرغ فيه عقله يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وحكمها للرعية و أمرهم على طاعة الملك وخدمته؛ فتتخلص الرعية من الظلم و الجور الذي يقوم به الملوك بحقهم، و رغب الملك أن يبقى هذا الكتاب من بعد وفاته حتى يكون ذكرى له على مر الزمان .

يعتبر كتاب كليلة و دمنة من أحد الكتب التي تخدم ثلاث فئات من الناس، فهو يعتبر كتاب مسلي و شيق للبسطاء و من يقرأون للمتعة، كما يعتبر مفيداً للحكام لما يتضمنه من حكمة و فلسفة على المستوى الاجتماعي و الثقافي، كما و تخدم فئة المتعلمين لما يحتويه من فصاحة و بلاغة اللغة العربية .

و إن كان كتاب كليلة و دمنة من أقدم الكتب إلا أنه وضع الأثر الكبير في نفوس الحكام و المسؤولين؛ لأنه وضع أسس الحكم، و قواعدها المبنية على مكارم الأخلاق و العدل و الانصاف .

ابن المقفع وكليلة ودمنة

هو عبد الله بن المقفّع وكان اسمه روزبه قبل أن يسلم. ولد في حور في فارس لقب أبوه بالمقفّع لتشنج أصابع يديه على اثر تنكيل الحجاج به بتهمة مد يده إلى أموال الدولة .

درس الفارسية وتعلّم العربية في كتب الأدباء واشترك في سوق المربد. رافق الأزمات السياسية في زمن الدولتين الأموية والعباسية. سئل ابن المقفّع "من أدّبك"؟ فقال: "نفسي. إذا رأيت من غيري حسناً آتية وإن رأيت قبيحاً أبَيْتُه .

كان فاضلاً ونبيلاً وكريماً ووفياً. ونستطيع أن نعرف عنه صدقه من خلال كتاباته. من القصص التي تدلّ على صدقه ووفائه. ولما قُتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية اختفى عبد الحميد الكاتب فُعْثِرَ عليه عند ابن المقفّع وكان صديقه. وعندما سئل الرجلان: أيكما عبد الحميد؟ قال كل واحد منهما "أنا" خوفاً على صاحبه .

في ظل الدولة العباسية اتصل ابن المقفّع بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور واستمر يعمل في خدمته حتى قتله سفيان بن معاوية والي البصرة من قبل المنصور. والأرجح أن سبب مقتله يعود إلى المبالغة في صيغة كتاب الأمان الذي وضعه ابن المقفّع ليوقع عليه أبو جعفر المنصور أماناً لعبد الله بن عليّ عم المنصور. وكان ابن المقفّع قد أفرط في الاحتياط عند كتابة هذا الميثاق بين الرجلين - عبد الله بن علي والمنصور - حتى لا يجد المنصور منفذاً للإخلال بعهدده .

ومما جاء في كتاب الأمان: إذا أخلّ المنصور بشرط من شروط الأمان كانت "نساؤه طوالق وكان الناس في حلّ من بيعته" مما أغاظ المنصور فقال: "أما من أحد يكفينيه"؟ وكان سفيان بن معاوية يبيّت لابن المقفّع الحقد فطلبه ولما حضر قيّده وأخذ يقطعه عضواً فعضواً ويرمي به في التنور .

يحاول البعض الإنقاص من شأن ابن المقفع كقولهم إن مذهبه مجوسي من أتباع زرادشت وانه لم يسلم إلا للمحافظة على روحه وللتقرب إلى العباسيين ويتهمون به كذلك بالزندقة. ولكن الحقيقة انه صاحب نفس شريفة يقدر الصداقة حق قدرها. وقد رأى بالأصدقاء عماد الحياة ومرآة النفس لذا نصح بالدقة في اختيار الأصدقاء .

وكان ابن المقفع صاحب علم واسع وعرف الثقافة العربية والفارسية واليونانية والهندية. وإذا كان ابن المقفع اظهر عيوب النظم الإدارية في عصره وفضل النظم الإدارية الفارسية فالحقيقة إن العرب كانوا بعيدين عن النظم الإدارية. فبعد قيام الدولة الإسلامية في عهد الرسول أخذ الفاروق عمر بن الخطاب الكثير من النظم الإدارية عن الفرس واستطاع بهذا بناء دولة قوية. وكان لهذا أثره الكبير في تطوّر الدولة العربية .

قتل ابن المقفع وهو في مقتبل العمر ولم يتجاوز السادسة والثلاثين عند موته. إلا انه خلف لنا من الآثار الكثيرة ما يشهد على سعة عقله وعبقريته وانه صاحب المدرسة الرائدة في النثر

مثل المصدق المخدوع

زعموا أن سارقاً كان على ظهر بيت رجل من الأغنياء وكان معه جماعة من أصحابه، فاستيقظ الرجل من صوته فأيقظ أراته فأعلمها بذلك وقال لها: إن اللصوص على البيت، فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي: ألا تخبرني أيها الرجل عم أموالك هذه وكنوزك العظيمة من أين جمعتها. فإذا امتنعت عليك

فألحي علي في السؤال واستحلفيني حتى أقول لك .
ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها . وأنصت اللصوص إلى سماع
قولها . فقال الرجل: أيتها المرأة، قد ساقك الله إلى رزق واسع
ومال كثير، فكلي واشربي ولا تسألي عن أمرٍ إن أخبرتك به لم
آمن أن يسمعه أحد فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين .
فقالت المرأة: أخبرني أيها الرجل، فلعمري ما بقربنا أحدٌ يسمع
كلامنا . فقال لها: فإني مخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من
السرقه . قالت: وكيف كان ذلك . قال: كان لدي علمٌ في السرقة
وكان الأمر علي يسيراً وأنا آمن من أن يتهمني أحد أو يشك في .
كنت أذهب أنا وأصحابي في الليلة المقمرة، حتى إذا صرنا على
ظهر منزل بعض الأغنياء، فإذا وصلت إلى النافذة، قفزت إلى
المنزل وأنا أقول العبارة: "شولم شولم" سبع مرات . فلا يحس
بوقوعي أحد ولا يبقى في المنزل شيء إلا أتاني قاصداً مطيعاً،
فلا أدع شيئاً إلا أخذته . فأذهب إبل أصحابي فنمضي سالمين
آمنين .

فلما سمع اللصوص ذلك قالوا: قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال،
ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن الرجل وزوجته قد هجعا،
وكانت تلك الليلة مقمرة . فقام قائدهم إلى النافذة وقال: "شولم
شولم" سبع مرات ثم دخل المنزل عن طريق النافذة، فوقع على
أم رأسه منكساً فوثب عليه الرجل بعصاه وقال له: من أنت، قال:
أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يمكن أن يكون . وهذه ثمرة
رقيتك وعاقبة من يصدق كل ما يسمع .

مثل الرجل والخادم

زعموا أن هناك رجلاً تواطأ مع خادم في بيت أحد الأغنياء على أن يأتي البيت في كل ليلة يغيب أهله فيجمع له الخادم مما في البيت فيذهب به ويبيعه ويتشاطر ثمنه.

في إحدى الليالي، غاب أهل البيت، فاتفقا على تنفيذ خطتهما مباشرة. فأقبل الرجل حتى دخل البيت وأخذ في الجمع مما فيه. وبينما الخادم واللص منهما كان في الجمع، إذ قرع الباب. وكان للبيت باب آخر لم يكن يعلمه الرجل، وكان ذلك الباب عند جب الماء. فقال الخادم للرجل: بادر اخرج من الباب الذي عند جب الماء، وأشار له إلى موضعه. فانطلق الرجل إلى ذلك المكان فوجد الباب ولكن لم يجد جب الماء. فرجع إليه وقال له: أما الباب فقد وجدته، وأما الجب فلم أجده ! فقال له: أيها الأحمق، وماذا تريد بالجب ؟ أنا دلتك به لتعرف الباب، فإذا عرفت فإذهب عاجلاً. فقال: فلم ذكرت الجب وهو ليس هناك؟ فقال: ويحك، انج بنفسك ودع عنك الحمق والتردد. فقال له: كيف أمضي وقد خلطت علي بذكرك الجب وهو ليس هناك؟ فلم يزل على مثل هذا الحال حتى دخل رب البيت فأمسكه بثيابه وأوجعه ضرباً ورفعاه إلى السلطان.

مثل الرجل والتنين

كان هناك رجلاً قد لجأ من وحشة الصحراء إلى بئر فتدلى وتعلق بغصن شجرة ونظر إلى السفلى فرأى أربع حيات يسعين وفي نهاية البئر يوجد تنين عملاق فاتح فيه ينتظر إلى أن يسقط ورفع رأسه إلى أعلى الغصن فرأى جردان أبيض واسود يقرضان أساس الغصن وبينما هو خائف ومرتبك نظر عن يمينه فرأى نحلات قد

صنعن بعض العسل فاراد ان ياكل منه قليلا عسى ان ينسيه ما
هو فيه من هم فافلت الغصن ليأتي بالعسل فوقع في قم التتين
الجائع فهلك على الفور وفي النهاية شبعت البئر بالدنيا المليئة
افكا وشرور والحيات الاربع هم هموم الانسان والجرذين الليل
والنهار والتين هو الموت الذي لا بد آت والعسل هو ما في الدنيا
من متاع قليل يؤدي الى الهلاك.

مثل المكتشف الكنز

ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب من غير أعمال الروية
فيما يقرأه كان خليفاً أن لا يصيبه إلا كما أصاب الرجل الذي
زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز فظهرت له آثار كنوز،
فجعل يحفز ويطلب فوقع على شيء كثير من عين وورق، فقال
في نفسه: إن أخذت في نقل هذا المال كان إخراجي له قد قطعني
الاشتغال بنقله عن اللذة بما أصيب منه، ولكن استأجر قوماً
يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم ولا أبقى ورأيي قوماً
يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم ولا أبقى ورأيي شيئاً أشغل
فكري بنقله، وأكون قد استظهرت في إراحة بدني عن الكد بيسير
أجرة أعطيها لهم. ثم جاء بالحمالين فجعل يسلم إلى كل واحد
منهم ما يقدر على حمله ويقول له: اذهب به إلى منزلي. فینطلق
به الحمال إلى منزل نفسه فيغدر به، حتى إذا لم يبق من الكنز
شيء انطلق إلى منزله فلم ير فيه من المال شيئاً ووجد كل واحد
من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه، ولم يكن له من ذلك العناء
والتعب لأنه لم يفكر في آخر أمره.

الجوز الصحيح و الصحيفة الصفراء

لدينا في هذه الحلقة مثلاً مرتبطان ببعضهما، فالأول يحكي قصة الرجل الذي قُدم له جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره و يستخرج مافيه.

وهذا المثل مرتبط مباشرةً بمثل الرجل الذي طلب علم فصيح من كلام الناس، فأتى صديقاً له من العلماء له علم في الفصاحة، فأعلمه أنه يريد علم فصيح. فرسم له صديقة في صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه. فانصرف بها إلى منزله فأخذ يحفظها بدون أن يعلم معانيها أو يعلم تأويل مافيه. ثم جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والأدب فأخذ في محاورتهم، فأخطأ في بعض الكلمات والجمل، فقال له الجماعة: إنك قد أخطأت، ولم تقل الصواب. فقال: كيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة من أولها إلى آخرها وحفظتها عن ظهر غيب ! فسخط عليه القوم و علموا أنه لم يحسن استعمالها.

الرجل الصابر على اللص

كان هناك رجل نائم في منزله بعد يوم شاق، فلما انتصف الليل إذا بسارق قد دخل إلى منزله يريد سرقة، فعلم به وقال: والله لأسكتن عنه ولا أضايقة حتى يجمع ما يريد، فإذا هم بالهروب

قمت بالإمساك به والتنغيص عليه. فجلس في مرقده يغالب
النعاس والسارق يجمع كل ما أمامه، حتى غلبه النعاس فنام وفر
اللص. فلما استيقظ وجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به. فأقبل على
نفسه يلومها وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص ولم يقم بما يجب.

حكاية مثل اللص والفقير

يحكى انه كان هنالك رجل فقير كان به فاقة وجوع وعري فألجأه
ذلك الى أن سأل من أقاربه وأصدقائه
فلم يكن عند احد منهم فضل يعود به عليه، فبينما هو في ذات
ليله في منزله اذ بصر بسارق فيه
فقال: والله مافي منزلي شيء أخاف عليه فليجهد السارق
جهده. فبينما السارق يجول اذ وقعت يده على خابيه فيها
حنطة فقال السارق: والله ما احب أن يكون عنائي الليلة باطلا
ولعلي لا اصل الى موضع اخر ولكن سأحمل هذه
الحنطة خير من الجوع بغير شيء ثم بسط ردائه، ليصب
الحنطة ,

فقال الرجل الفقير: يذهب هذا ب الحنطة وليس ورائي سواها
فيجتمع علي مع العري ذهاب ما كنت أقتات به
وما تجتمع والله هاتان الخلتان على احد ألا أهلكته. ثم صاح
بالسارق وأخذ هراوة (بمعنى :العصا الضخمة)
كانت عند رأسه فلم يكن للسارق حيلة ألا الهرب منه وترك ردائه
ونجا بنفسه وغدا الرجل الفقير به كاسيا.

ولا ينبغي للعاقل ان يركن الى مثل هذا ويدع ما يجب عليه من
الحذر والعمل لصالح معاشه ولا ينظر الى من تواتيه
(بمعنى:توافقه) المقادير وتساعده على غير التماسه منه فان
أولئك في الناس قليل، والجمهور منهم من اتعب نفسه
في الكد والسعي فيما يصلح امره وينال به ماأراد وينبغي ان
يكون حرصه على ما طاب كسبه وحسن نفعه
ولا يتعرض لما يجب عليه العناء فيكون كالحمامة التي تفرخ
الفراخ فتؤخذ وتذبح ثم لا يمنعها ذلك من ان تعاود
تفرخ موضعها وتقيم بمكانها فتؤخذ الثانيه من افراخها فتذبح
حتى تؤخذ هي ايضا فتذبح.

وقد يقال ان الله تعالى قد جعل لكل شيء حدا يوقف عليه، ومن
تجاوز في الأشياء حدا أو شك ان يلحقه التقصير عن بلوغها
،فيقال من كان سعيه لأخرته ودنياه فحياته له وعليه،ومن كان
سعيه لدنياه فقط فحياته عليه، ومن كان
سعيه لاخرته فقط فحياته له. ويقال في ثلاثة اشياء يجب على
صاحب الدنيا اصلاحها وبذل جهده فيها منها امر معيشته ، ومنها
ما بينه وبين الناس، ومنها ما يكسبه الذكر الجميل من بعده، وقد
قيل في أمور من كن فيه لم يستقم
له عمله ،منها التواني (بمعنى:الفتور) ومنها تضيع الفرص،
ومنها التصديق لكل مخبر، ومنها التكذيب لكل عارف. ورب مخبر
بشيء عقله فلا يعرف استقامته فيصدق، والذي يفعل ذلك من
الناس ثلاثة: رجل يصدق بما
جربه غيره وصدقه فيصدق وهو يتمادى في التصديق حتى كأنما
جربه بنفسه، ورجل يصدق بالامور التي جربها ولكن بغير علم

عن حقيقتها، ورجل تلتبس عليه الامور فيصدق بها ، وينبغي
للعاقل ان يكون لهواه متهما
ولا يقبل من كل احد حديث ولا يتمادى في الخطأ اذا التبس عليه
امره حتى يتبين له الصواب وتتضح له الحقيقة
ولا يكون كالرجل الذي يجور عن الطريق فيستمر على الضلال فلا
يزداد في السير الاجهدا، وعن القصد الا بعدا
وكالرجل الذي تقذى عينيه (بمعنى: اصابها قذى وهو الوسخ) فلا
يزال يحكها حتى ربما كان ذلك الحك سببا لذهابها، ويجب على
العاقل ان يصدق بالقضاء والقدر ويأخذ بالحزم في اموره ويجب
للناس ما يحب لنفسه ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره، :مع
التحية: وارجو ان تكونو قد استفدتو منها واكملتم قراتها.

مثل الشريك المحتال

يقال أنه كان رجل تاجر وله شريك فاستأجرا حانوتا وجعلا فيه
متاعهما، وكان أحدهما قريب المنزل إلى الحانوت فأضر في
نفسه أن يسرق عدلا من أعدال رفيقه. وفكر في الحيلة في ذلك،
وقال: إن أتيت ليلاً لا آمن أن أحمل عدلا من أعدالي أو رزمة من
متاعي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلا. واخذ رداءه وألقاه
على العدل الذي أضر أخذه ثم مضى إلى منزله .

فجاء شريكه بعد ذلك ليصلح أعداله، فقال: ”والله هذا رداء
صاحبي ولا أحسبه إلا قد نسيه، وأما الرأي فأن لا
أعده ها هنا بل أجعله على أعداله فلعله يسبقني إلى الحانوت
فيجده حيث يحب. ثم ألقى الرداء على عدل من أعداله وقفل
الحانوت وانصرف.

فلما كان الليل جاء رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ما عزم عليه
وضمن له جعلاً على حملة، فصار إلى الحانوت والتمس الرداء
في الظلمة فوجده على أحد الأعدال فاحتمله بعد الجهد الجهد
حتى أخرجه هو والرجل. ولم يزالا يتراوحيان على حملة حتى أتيا
به منزله ورمى نفسه تعباً. فلما أصبح نظر فإذا هو بعض أعداله
فندم أشد الندم. ثم انطلق نحو الحانوت فوجد رفيقه قد سبقه وفتح
الباب وتفقد العدل فلم يجده، فاغتم لذلك غمّاً شديداً، وقال:
واسوأته من رفيقي الصالح الذي ائتمنتني على ماله وخلفني
وانصرف، ماذا يكون حالي عنده ولا شك في تهمة إياي. ثم أتى
رفيقه فوجده مغتماً فسأله عن حاله فقال له: إني قد فقدت عدلاً
من أعدالك ولا أعلم سببه ولا أشك تهمتك إياي، وإني قد وظّنت
نفسي على غرامته .

فقال له: لا تغتم يا أخي، فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان.
والمكر والخديعة لا يؤديان إلى الخير وصاحبهما مغرور أبداً، وما
عاد وبال البغي إلا على صاحبه. وأنا أحد من مكر وخدع واحتال.
فقال له رفيقه: وكيف كان ذلك؟ فأخبره بأمره وقص عليه قصته،
فقال له صديقه: ما كان مثلك إلا كمثل اللص المخدوع والتاجر.
قال: وكيف كان ذلك ؟

مثل المصدق المخدوع

زعموا أن سارقاً كان على ظهر بيت رجل من الأغنياء وكان معه
جماعة من أصحابه، فاستيقظ الرجل من صوتهم فأيقظ أراته

فأعلمها بذلك وقال لها: إن اللصوص على البيت، فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي: ألا تخبرني أيها الرجل عم أموالك هذه وكنوزك العظيمة من أين جمعتها. فإذا امتنعت عليك فألحي علي في السؤال واستحلفيني حتى أقول لك. ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها. وأنصت اللصوص إلى سماع قولها. فقال الرجل: أيتها المرأة، قد ساقك الله إلى رزق واسع ومال كثير، فكلي واشربي ولا تسألي عن أمرٍ إن أخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين. فقالت المرأة: أخبرني أيها الرجل، فلعمري ما قربنا أحدٌ يسمع كلامنا. فقال لها: فإني مخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة. قالت: وكيف كان ذلك. قال: كان لدي علمٌ في السرقة وكان الأمر علي يسيراً وأنا آمن من أن يتهمني أحد أو يشك في. كنت أذهب أنا وأصحابي في الليلة المقمرة، حتى إذا صرنا على ظهر منزل بعض الأغنياء، فإذا وصلت إلى النافذة، قفرت إلى المنزل وأنا أقول العبارة: "شولم شولم" سبع مرات. فلا يحس بوقوعي أحد ولا يبقى في المنزل شيء إلا أتاني قاصداً مطيعاً، فلا أدع شيئاً إلا أخذته. فأذهب إبل أصحابي فنمضي سالمين آمنين.

فلما سمع اللصوص ذلك قالوا: قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال، ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن الرجل وزوجته قد هجعا، وكانت تلك الليلة مقمرة. فقام قائدهم إلى النافذة وقال: "شولم شولم" سبع مرات ثم دخل المنزل عن طريق النافذة، فوقع على أم رأسه منكساً فوثب عليه الرجل بعصاه وقال له: من أنت، قال: أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يمكن أن يكون. وهذه ثمرة رقيتك وعاقبة من يصدق كل ما يسمع.

مثل الصياد والصدفة

كان هناك صياداً في الخليج، يصيد فيه السمك في زورقٍ فرأى ذات يوم في الماء صدفة تتلألأ حسناً وجمالاً، فتوهمها جوهراً له قيمة. وكان قد ألقى شبكته في البحر فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه فخلاها وقذف بنفسه في الماء ليأخذ الصدفة. فلما أخرجها وجدها فارغة لاشيء فيها مما ظن. فندم على ترك ما في يده للطمع على مافاته. فلما كان في اليوم التالي، ذهب إلى مكان آخر، فأصاب حوتاً صغيراً، ورأى صدفة أخرى، فلم يلتفت إليها وشاء ظنه بها فتركها. فوجدها صياداً آخر فخذها ووجد فيها درة تساوي أموالاً كثيرة.

باب الاسد و الثور (الباب الاول في كتاب كليله و دمنه)

قال دبشليم الملك لبديا الفيلسوف ،و هو رأس البراهمة :أضرب لي مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال ،حتى يجعلهما على العداوة و البغضاء .قال بديا :إذا ابتلى المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال ،لم يلبثا أن يتقاطعا و يتدابرا ،و من أمثال ذلك أنه كان بأرض دستاوند رجل شيخ ،و كان له ثلاثة بنين .فلما بلغواأشدهم أسرفوا في مال أبيهم ،و لم يكونوا احترفوا حرفة يكسبون لأنفسهم بها خيرا فلامهم أبوهم ،ووعظهم على سوء فعلهم ،و كان من قوله لهم :يا بنى إن صاحب الدنيا يطلب ثلاث أمور لن يدركها الا بأربعة أشياء :

أما الثلاثة التي يطلب فالسعة في الرزق و المنزلة في الناس و الزاد للآخرة ، و أما الاربعة التي يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة فاكْتساب المال من أحسن وجه يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ، ثم استثماره ، ثم انفاقه فيما يصلح المعيشة و يرضي الأهل و الإخوان ، فيعود عليه نفعه في الآخرة فمن ضيع شيئاً من هذه الأحوال ، لم يدرك ما أراد من حاجته ، لأنه لم يكتسب ، لم يكن له مال يعيش به ، و إن هو وضعه و لم يستثمره ، لم تمنعه قلة الانفاق من سرعة الذهاب ، كالكحل الذي لا يؤخذ منه الا غبار الميل ثم هو مع ذلك سريع فناؤه ، و إن انفق في غير وجهه ، و وضعه في غير موضعه ، و اخطأ به موضوع استحقاقه ، صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له ، ثم لا يمنع ذلك ماله من التلف بالحوادث و العلل التي تجري عليه كمحبس الماء الذي لا تزال المياه تنضب فيه ، فإن لم يكن له مخرج و مفيض و متنفس يخرج الماء منه بقدر ما ينبغي ، خرب و سال و نز من نواح كثيرة ، و ربما انبثق (انشق و انفجر) البثق العظيم فذهب الماء ضياعاً ، ثم إن بنى الشيخ اعطوا بقول أبيهم و أخذوا به و علموا أن فيه الخير و عولوا عليه ، فانطلق أكبرهم نحو أرض يقال لها ميون فأتى في طريقه على مكان فيه وحل كثير ، و كان معه عجلة يجرها ثوران يقال أحدهما شتربة و الآخر بندبة ، فوحل شتربة في ذلك المكان ، فعالجه الرجل و أصحابه حتى بلغ منهم الجهد ، فلم يقدرُوا على اخراجه ، فذهب الرجل و خلف عنده رجل يشارفه ، لعل الوحل ينشف فيتبعه بالثور ، فلما بات الرجل بذلك المكان تبرمبه و استوحش ، فترك الثور و التحق بصاحبه ، فأخبره ان الثور قد مات و قال له إن الانسان إذا انقضت مدته و حانت منيته فهو و إن اجتهد في التوقي من الامور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم

يغن ذلك عنه شيئاً و ربما عاد فى توقيه و حذره وبالا عليه .
كالذي قيل إن رجلاً سلك مفازة فيها خوف من السباع، و كان
الرجل خبيراً بوعث تلك الارض و خوفها ، فلما سار غير بعيد
اعترض له ذئب من أحد الذئاب و أضراها ، فلما رأى الرجل أن
الذئب قاصد نحوه خاف منه ، و نظر يميناً و شمالاً ليجد موضعاً
يتحرز فيه من الذئب فلم ير الا قرية خلف واد ، فذهب مسرعاً نحو
القرية ، فلما أتى الوادي لم ير عليه قنطرة و رأى الذئب قد أدركه
، فألقى بنفسه فى الماء و هو لا يحسن السباحة و كاد يغرق ، لولا
أن بصر به قوم من أهل القرية ، فتواقعوا لإخراجه فأخرجوه نو قد
أشرف على الهلاك ، فلما حصل الرجل عندهم و أمن على نفسه
من غائلة الذئب رأى على عدوة الوادى (جانب الوادى) بيتاً
منفرداً، فقال أدخل هذا البيت فأستريح فيه ، فلما دخل وجد جماعة
من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار ، و هم
يقتسمون ماله ، و يريدون قتله ، فلما رأى الرجل ذلك خاف على
نفسه و مضى نحو القرية ، فأسند ظهره الى حائط من حيطانها
ليستريح مما حل به من الهول و الاعياء ، إذ سقط الحائط عليه
فمات ، قال التاجر: صدقت ، قد بلغنى هذا الحديث و أما الثور فقد
خلص من مكانه و انبعث ، فلم يزل فى مرج مخصب كثير الماء و
الكلأ، فلما سمن و أمن جعل يخور و يرفع صوته بالخوار، و كان
قريباً منه أجمة فيها أسد عظيم ، و هو ملك تلك الناحية ، و معه
سباع كثيرة و ذئاب و بنات آوى و ثعالب و فهود و نمور .

يتبع

و كان هذا الأسد منفرداً برأيه دون أخذ برأى أصحابه فلما سمع
خوار الثور ، و لم يكن يرى ثوراً قط و لا سمع خواره ، لأنه كان
مقيماً بمكانه لا يبرح و لا ينشط ، بل يؤتى برزقه كل يوم على يد
جنده ، و كان فيمن معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليله و

الآخر دمنة و كانا ذوى دهاء و علم و أدب .فقال دمنة لأخيه
كليلة :يا أخى ما شأن الاسد مقيما فى مكانه لا يبرح و لا
ينشط؟قال كليلة ماشائك أنت و المسألة عن هذا ؟نحن على باب
ملكنا آخذين بما أحب و تاركين بما يكره،و لسنا من أهل المرتبة
التي يتناول أهلها كلام الملوك و النظر فى أمورهم..فأمسك عن
هذا ،و أعلم انه من تكلف من القول و الفعل مال ليس من شأنه
أصاب ما أصاب القرد من النجار .

قال دمنة و كيف كان ذلك؟قال كليلة :زعموا ان قرداً رأى نجاراً
يشق خشبة بين وتدين ،و هو راكب عليها ،فأعجبه ذلك ،ثم إن
النجار ذهب لبعض شأنه فقام القرد ،و تكلف ما ليس من شغله
،فركب الخشبة و جعل ظهره قبل الوتد ،ووجهه قبل الخشبة
فتدلى زنبه فى الشق ،و نزع الوتد فلزم الشق عليه فخر مغشياً
عليه ،ثم ان النجار و افاه فرأى موضعه ،فأقبل عليه يضربه
،فكان مالمقى من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة
،قال دمنة :قد سمعت ما ذكرت ،و لكن اعلم ان كل من يدنو من
الملوك ليس يدنو منهم لبطنه ،و إنما يدنو منهم ليسر
الصديق و يكبت العدو ،و إن من الناس من لا مروءة له ،و هم
الذين يفرحون بالقليل و يرضون بالدون،كالكلب الذي يصيب
عظما يابساً فيفرح به ،و أما أهل الفضل و المروءة فلا يقنعهم
القليل ،و لا يرضون به ،دون ان تسمو به نفوسهم الى ما هم اهل
له،و هو أيضا لهم أهل ،كالأسد الذي يفترس الارنب فإذا رأى
البعير تركها و طلب البعير ،ألا ترى أن الكلب يبصبص(يحرك
ذنبه)بذنبه،حتى ترمى له الكسرة نو ان الفيل المعترف بفضله و
قوته إذا قدم اليه علفه لا يعتلفه حتى يمسح و يتملق له فمن
عاش ذا مال و كان ذا فضل و إفضال على أهله و إخوانه فهو و

إن قل عمره طويل العمر، و من كان فى عيشة ضيق و قلة امساك على نفسه و ذويه فالمقبور أحياء منه ، و من عمل لبطنه و قنع و ترك ما سوى ذلك عد من البهائم.

قال كليله :قد فهمت ما قلت ،فراجع عقلك ،و اعلم ان لكل انسان منزلة و قدرا فإن كان فى منزلته التي هو فيها متماسكا ،كان حقيقيا أن يقنع ،و ليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التي نحن عليها ،قال دمنة :إن المنازل متنازعة مشتركة على قدر المروءة فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة ،و إن الارتفاع الى المنزلة الشريفة شديد و الانحطاط منها كالحجر الثقيل رفعه من الارض الى العاتق عسر ،و وضعه الى الارض هين،فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل ،و أن نلتمس ذلك بمروءتنا ،ثم كيف نقنع بها و نحن نستطيع التحول عنها؟قال كليله:فما الذى اجتمع عليه رأيك؟قال دمنة:أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة ،فإن الأسد ضعيف

الرأى.و لعل على هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده منزلة و مكانة .قال كليله :و ما يدريك ان الأسد قد ألتبس عليه أمره؟قال دمنة :بالحس و الرأي أعلم ذلك منه :فإن الرجل ذا الراى يعرف حال صاحبه و باطن أمره بما يظهر له من دله و شكله ،قال كليله:فكيف ترجو المنزلة عند الاسد و لست بصاحب السلطان نو لا لك علم بخدمة السلاطين؟.

قال دمنة :الرجل الشديد القوى لا يعجزه الحمل الثقيل ،و إن لم تكن عادته الحمل ،و الرجل الضعيف لا يستقل به و إن كان ذلك من صناعته .قال كليله :فإن السلطان لا يتوخى بكرامته فضلاء من بحضرته ،و لكنه يؤثر الأدنى و منقرب منه . و يقال :إن مثل السلطان فى ذلك مثل شجر الكرم الذي لا يعلق الا بأقرب الشجر،و كيف ترجو المنزلة عند الاسد و لست تدنو منه؟قال دمنة :قد

فهمت كلامك جميعه و ما ذكرت و انت صادق، لكن أعلم أن الذي هو قريب من السلطان و لا ذلك موضعه و لا تلك منزلته ،ليس كمن دنا منه بعد البعد و له حق و حرمة ،و أنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدى . و قد قيل لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأنفة و يحمل الأذى و يكظم الغيظ و يرفق بالناس و يكتم الستر ،فإذا وصل الى ذلك فقد بلغ مراده ،قال كليله: هبك وصلت الى الاسد ،فما تو فيقك عنده الذى ترجو أن تنال به المنزلة و الحظوة لديه ؟قال دمنة :لو دنوت منه و عرفت أخلاقه،

يتبع

لرقت فى متابعتة و قلة الخلاف له،و إذا أراد أمرا هو فى نفسه صواب ،زينته له و صبرته عليه،و عرفته بما فيه النفع و الخير ،و شجعتة عليه و على الوصول إليه ،حتى يزداد به سرورا ،و إذا أراد أمرا يخاف عليه ضره و شينه ،بصرته بما فيه من الضر و الشين نو أوقفته على ما فى تركه من النفع و الزين ،بحسب ما أجد إليه السبيل .و أنا أرجو أن أزداد بذلك عند الاسد مكانة و يرى منى مالا يراه من غيري ،فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقا أو يحق باطلا لفعل ،كالمصور الماهر الذى يصور فى الحيطان صوراً كأنها خارجة و ليست بخارجة ،و أخرى كأنها داخلة و ليست بداخلة ،قال كليله :أما إن قلت هذا او قلت هذا فإنى اخاف عليك من السلطان

فإن صحبته خطرة ، و قد
قالت العلماء :إن أموراً ثلاثة لا يجترىء عليهن الا أهوج، و لا
يسلم منهن الا قليل،
و هى :صحبة السلطان ، و ائتمان النساء على الاسرار ، و شرب
السم للتجربة ،إنما شبه
العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذى فيه الثمار الطيبة و
الجواهر النفيسة و
الادوية النافعة ، و هو مع ذلك معدن السباع و النمر و الذئاب و
كل ضار مخوف
فالارتقاء إليه شديد ، و المقام فيه أشد .

قال

دمنة :صدقت فيما ذكرت غير أنه من لم يركب الالهوال ،لم ينل
الرجاء ،و من ترك الأمر
لعله يبلغ فيه حاجته و مخافة لما لعله أن يتوقاه ،فليس ببالح
جسيما . و قد قيل :إن
خصالا ثلاثا لن يستطيعها أحد لا بمعونة من علو همة و عظيم
خطر ،منها عمل السلطان و
تجارة البحر و مناجزة (مقاتلة) العدو . و قد قالت العلماء فى
الرجل الفاضل الرشيد
:إنه لا يرى الا فى مكانين ،و لا يليق به غيرهما :إما مع الملوك
مكرما ،و إما مع
النسك متعبدا ،كالفيل إنما جماله فى مكانين :إما أن تراه وحشيا

أو مركبا للملوك
،قال كليلّة :خار(جعل لك فيه الخير)الله لك فيما عزمت عليه .

ثم إن
دمنة انطلق حتى دخل الاسد فسلم عليه ،فقال الأسد لبعض
جلسائه:من هذا؟فقال:فلان بن
فلان:قد كنت أعرف أباه ،ثم سأله أين تكون؟:لم أزل ملازما باب
الملك ،رجاء أن يحضر
أمر فأعين الملك فيه بنفسى و رأيي،فإن أبواب الملوك تكثر فيها
الامور التى ربما
يحتاج فيها الى الذى لا يؤبه(يفطن)به له و ليس أحد يصغر أمره
الا و قد يكون عنده
بعض الغناء و المنافع على قدره،حتى العود الملقى فى الارض
ربما نفع،فيأخذه الرجل
فيكون عدته وقت الحاجة إليه،فلما سمع الأسد قول دمنة أعجبه
،و ظن ان عنده نصيحة و
رأيا.

فأقبل
على من حضر فقال:إن الرجل ذا العلم و المروءة يكون حامل
الذكر خافض المنزلة فتأبى

منزلته الا أن تشب و ترتفع ،كالشعلة من النار يضربها صاحبها
و تأبى الا ارتفاعا
فلما عرف دمنة ان الأسد قد عجب منه قال :إن رعية الملك
تحضر باب الملك ،رجاء أن
يعرف ما عندها من علم وافر . و قد يقال :إن الفضل فى أمرين
:فضل المقاتل على العمل
،فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان و لكن بصالحي الأعوان .
و مثل ذلك مثل الرجل
الذى يحمل الحجر الثقيل ،فيثقل به نفسه ،و لا يجد له ثمناً ،و
الرجل الذى يحتاج
إلى الجذوع لا يجزئه القصب و إن كثر .فأنت الآن أيها الملك
حقيق ألا تحقر مروءة
أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة ،فإن الصغير ربما عظم
،كالعصب يؤخذ من الميتة فإذا
عمل منه القوس أكرم ،فتقبض عليه الملوك و تحتاج إليه فى
البأس و اللهو.

و

احب دمنة أن يرى القوم أن ما ناله من كرامة الملك إنما هو
لرأيه و مروءته و عقله
:لأنهم عرفوا قبل ذلك ان ذلك لمعرفته أباه ،فقال :

غن السلطان

لا يقرب الرجال لقرب آبائهم ،و لا يبعدهم لبعدهم ،و لكن ينبغى
ان ينظر إلى كل رجل
بما عنده ،لأنه لا شىء أقرب إلى الرجل من جسده و من جسده ما
يدوي (يمرض)حتى يؤذيه
و لا يدفع ذلك عنه إلا بالدواء الذى يأتیه من بعد .

فلما

فرغ دمنة من مقالته هذاعجب الملك بع إعجابا شديدا ،و أحسن
الرد عليه،و زاد فى
كرامته ،ثم قال لجلسائه:ينبغى للسلطان ألا يلج فى تضييع حق
ذوى الحقوق،و الناس فى
ذلك رجلان :رجل طبعه الشراسة ،فهو كالحية إن وطئها الواطىء
فلم تلدغه ،لم يكن جديرا
أن يغره ذلك منها ،فيعود إلى وطنها ثانيا فتلدغه ،و رجل أصل
طباعه السهولة ،فهو كالصندل البارد الذى إذا أفرط فى حكه صار
حارا مؤذيا.

يتبع.....

ثم إن دمنة استأنس بالأسد وخلا به. فقال يوما: أرى الملك قد أقام في مكان واحد لا يبرح منه، فما سبب ذلك؟ فبينما هما في هذا الحديث إذ خار شترية خواراً شديداً: فهيج الأسد وكره أن يخبر دمنة بما ناله؛ وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبة وهيبة. فسأله: هل راب الملك سماع هذا الصوت؟ قال لم يرني شيء سوى ذلك. قال دمنة: ليس الملك بحقيق أن يدع مكانه لأجل صوت. فقد قالت العلماء: إن ليس من كل الأصوات تجب الهيبة. قال الأسد: وما مثل ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن ثعلباً أتى أجمةً فيها طبل معلق على شجرة، وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرية حركتها، فضربت الطبل فسمع له صوت عظيم؛ فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظم صوته؛ فلما أتاه وجده ضخماً، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم. فعالجه حتى شقه. فلما رآه أجوف لا شيء فيه، قال: لا أدري لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتاً وأعظمها جثّة. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذي راعنا، لو وصلنا إليه، لوجدناه أيسر مما في أنفسنا. فإن شاء الملك بعثني وأقام بمكانه حتى آتية ببيان هذا الصوت. فوافق الأسد قوله، فأذن له بالذهاب نحو الصوت. فانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه شترية. فلما فصل دمنة من عند الأسد، فكر الأسد في أمره، وندم على إرسال دمنة حيث أرسله، وقال في نفسه: وأصبت في ائتماني دمنة، وقد كان ببابي مطروحاً، فإن الرجل إذا كان يحضر باب الملك، وقد أبطلت حقوقه من غير جرم كان منه، أو كان مبيعاً عليه عند سلطانه؛ أو كان عنده معروفاً بالشره والحرص، أو كان قد أصابه ضرٌّ وضيق فلم ينعشه، أو كان قد اجترم جرماً فهو يخاف العقوبة منه، أو كان يرجو شيئاً يضر الملك وله منه نفع؛ أو يخاف في شيء

مما ينفعه ضرراً، أو كان لعدو الملك مسالماً، ولمسالمة محارباً،
فليس السلطان بحقيق أن يعجل بالاسترسال إليه، والثقة به،
والانتماء له: فإن دمنة داهية أريب. وقد كان ببابي مطروحاً
مجفواً. ولعله قد احتمل علي بذلك ضغناً، ولعل ذلك يحمله على
خيانتني وإعانة عدوي ونقيصتي عنده؛ ولعله صادف صاحب
الصوت أقوى سلطاناً مني فيرغب به عني ويميل مع علي. ثم قام
من مكانه فمشى غير بعيد، فبصر بدمنة مقبلاً نحوه فطابت نفسه
بذلك، ورجع إلى مكانه، ودخل دمنة على الأسد فقال له: ماذا
صنعت؟ وماذا رأيت؟ قال: رأيت ثوراً هو صاحب الخوار والصوت
الذي سمعته. قال: فما قوته؟ قال: لا شوكة له. وقد دنوت منه
وحاورته محاورة الأكفاء ولا يصغرن عندك أمره: فإن الريح
الشديدة لا تعباً بضعيف الحشيش، لكنها تحطم طوال النخل وعظيم
الشجر.

قال دمنة: لا تهابن أيها الملك منه شيئاً؛ ولا يكبرن عليك أمره:
فأنا آتيك به ليكون لك عبداً سامعاً مطيعاً. قال الأسد: دونك وما
بدا لك.

فانطلق دمنة إلى الثور، فقال له غير هائب ولا مكترث: إن الأسد
أرسلني إليك لآتيه بك. وأمرني، إن أنت عجلت إليه طائعاً، أو
أؤمنك على ما سلف من ذنبك في التأخر عنه وتركك لقاءه؛ وإن
أنت تأخرت عنه وأحجمت، أن أعجل الجرعة إليه فأخبره. قال له
شترية: ومن هو هذا الأسد الذي أرسلك إلي؟ وأين هو؟ وما
حاله؟ قال دمنة: هو ملك السباع، وهو بمكان كذا، ومعه جنود كثير
من جنسه فرعب شترية من ذكر الأسد والسباع. وقال: إن أنت
جعلت لي الأمان على نفسي أقبلت معك إليه. فأعطاه دمنة من
الأمان ما وثق به. ثم أقبل والثور معه، حتى دخلا على الأسد
فأحسن الأسد إلى الثور وقربه؛ وقال له: متى قدمت هذه البلاد؟

وما أقدمكها؟ فقص شتربة عليه قصته. فقال له الأسد اصحبني
والزمني: فإني مكرمك. فدعا الثور وأثنى عليه.
ثم إن الأسد قرب شتربة وأكرمه وأنس به وأتمنه على أسرارهِ
وشاوره في أمره، ولم تزده الأيام إلا عجباً به ورغبةً فيه وتقريباً
منه؛ حتى صار أخص أصحابه عنده منزلةً. فلما رأى دمنة أن
الثور قد اختص بالأسد دونه ودون أصحابه، وأنه قد صاد صاحب
رأيه وخلواته ولهوه، حسده حسداً عظيماً، وبلغ منه غيظه كل
مبلغ: فشكا ذلك إلى أخيه كليله، وقال له: ألا تعجب يا أخي من
عجز رأيي، وصنعي بنفسي؟ ونظري فيما ينفع الأسد، وأغفلت
نفع نفسي حتى جلبت إلى الأسد ثوراً غلبني على منزلتي.
قال كليله: أخبرني عن رأيك وما تريد أن تعرم عليه في ذلك. قال
دمنة: أما أنا فلست اليوم أرجو أن تزدد منزلتي عند الأسد فوق
ما كانت عليه؛ ولكن ألتمس أن أعود إلى ما كنت عليه: فإن أموراً
ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها، والاحتيال لها بجهد: منها النظر
فيما مضى من الضر والنفع،

فيحترس من الضر الذي أصابه فيما سلف لئلا يعود إلى ذلك
الضر، ويلتمس النفع الذي مضى ويحتال لمعاودته؛ ومنها النظر
فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضاء، والاستيثاق بما ينفع
والهرب مما يضر؛ ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل
النفع، وما يخاف من قبل الضر، فيستتم ما يرجو ويتوقى ما
يخاف بجهد. وإني لما نظرت في الأمر الذي به أرجو أن تعود
منزلتي، وما غلبت عليه مما كنت فيه، لم أجد حيلةً ولا وجهاً إلا
الاحتتيال لآكل العشب هذا، حتى أفرق بينه وبين الحياة: فإنه إن
فارق الأسد عادت لي منزلتي. ولعل ذلك يكون خيراً للأسد: فإن
إفراطه في تقرب الثور خلیق أن يشينه ويضره في أمره. قال
كليله: ما أرى على الأسد في رأيه في الثور ومكانه منه ومنزلته

عنده شيئاً ولا شراً. قال دمنة: إنما يؤتى السلطان ويفسد أمره من قبل ستة أشياء: الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخرق.

فأما الحرمان فإن يحرم صالح الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، وترك التفقد لمن هو كذلك. وأما الفتنة فهي تحارب الناس ووقوع الحرب بينهم. وأما الهوى فالغرام بالحدث واللهو والشراب والصيد وما أشبه ذلك. وأما الفظاظة فهي إفراط الشدة حتى يجمع اللسان بالشتم واليد بالبطش في غير موضعهما. وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين والموت ونقص الثمرات والغزوات وأشباه ذلك. وأما الخرق فإعمال الشدة في موضع اللين، واللين في موضع الشدة. وإن الأسد قد أغرم بالثور إغراماً شديداً هو الذي ذكرت لك أنه خالق لأن يشينه ويضره في أمره. قال كليله: وكيف تطيق الثور وهو أشد منك وأكرم على الأسد وأكثر أعواناً؟ قال دمنة: لا تنظر إلى صغري وضعفي: فإن الأمور ليست بالضعف ولا القوة ولا الصغر ولا الكبر في الجثة: فرب صغير ضعيف قد بلغ حيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء. أولم يبلغك أن غراباً ضعيفاً احتال لأسود حتى قتله؟ قال كليله: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن غراباً كان له وكرٌ في شجرة على جبل؛ وكان قريباً منه حجر ثعبانٍ أسود، فكان الغراب إذا فرخ عمد الأسود إلى فراخه فأكله؛ فبلغ ذاك من الغراب وأحزنه، فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى؛ وقال له: أريد مشاورتك في أمر قد عزمت عليه؛ قال: وما هو؟ قال الغراب: قد عزمت أن أذهب اليوم إلى الأسود إذا نام، فأنقر عينيه، فأفقاهما، لعلني أستريح منه. قال ابن آوى: بئس الحيلة التي احتلت؛ فالتمس أمراً تصيب فيه بغيتك من الأسود، من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها. وإياك أن يكون

مثلك مثل العلجوم الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه. قال
الغراب: وكيف كان ذلك؟

قال ابن آوى: زعموا أن علجوماً عشش في أجمة كبيرة السمك؛
فعاش بها ما عاش؛ ثم هرم فلم يستطع صيداً؛ فأصابه جوعٌ
وجهدٌ شديدٌ؛ فجلس حزيناً يلتمس الحيلة

في أمره؛ فمر به سرطانٌ، فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة
والحزن؛ فدنا منه وقال: مالي أراك أيها الطائر هكذا حزيناً كئيباً؟
قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما هنا
من السمك؟ وإنني قد رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان؛ فقال

أحدهما لصاحبه: إن ها هنا سمكاً كثيراً أفلا نصيده أولاً؟ فقال
الآخر: إنني قد رأيت في مكان كذا سمكاً أكثر من هذا السمك،
فلنبداً بذلك، فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه. وقد علمت
أنهما إذا فرغا مما هناك، انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها؛
فإذا كان ذلك فهو هلاكي ونفاذ مدتي. فانطلق السرطان من

ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك؛ فأقبلن إلى العلجوم
فاستشرنه؛ وقلن له: إنا أتينا لك لتشير علينا: فإن ذا العقل لا يدع
مشاورة عدوه. قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لي
بها؛ ولا أعلم حيلة إلا المصير إلى غدير قريب من ها هنا، فيه
سمكٌ ومياهٌ عظيمةٌ وقصبٌ، فإن استطعن الانتقال إليه، كان فيه
صلاحكن وخصبكن. فقلن له: ما يمن علينا بذلك غيرك. فجعل
العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى ينتهي بهما إلى بعض
التلال فيأكلهما؛ حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين؛ فجاءه

السرطان؛ فقال له: إنني أيضاً قد أشفقت من مكاني هذا
واستوحشت منه فاذهب بي إلى ذلك الغدير؛ فاحتمله وطار به،
حتى إذا دنا من التل الذي كان يأكل السمك فيه نظر السرطان
فرأى عظام السمك مجموعةً هناك؛ فعلم أن العلجوم هو صاحبها؛

وأنه يريد به مثل ذلك. فقال في نفسه: إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك. سواءً قاتل أم لم يقاتل؛ كان حقيقاً أن يقاتل عن نفسه كرمًا وحفاظاً، ثم أهوى بكلبتيه على عنق العلجوم، فعصره فمات؛ وتخلص السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيلة

مهلكة للمحتال ولكني أدلك على أمر، إن أنت قدرت عليه، كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك، وتكون فيه سلامتك. قال الغراب وما ذاك؟ قال ابن آوى: تنطلق فتبصر في طيرانك: لعلك أن تظفر بشيء من حلي النساء فتخطفه؛ ولا تزال طائراً واقعاً، بحيث لا تفوت العيون، حتى تأتي حجر الأسود فترمي بالحلي عنده. فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود. فانطلق الغراب محلقا في السماء؛ فوجد امرأة من بنات العظماء فوق سطح تغتسل؛ وقد وضعت ثيابها وحليها ناحية؛ فانقض واختطف من حليها عقداً، وطار به، فتبعه الناس؛ ولم يزل طائراً واقعاً، بحيث يراه كل أحد؛ حتى انتهى الأمر إلى حجر الأسود؛ فألقى العقد عليه، والناس ينظرون إليه. فلما أتوه أخذوا العقد وقتلوا الأسود. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجرئ مالا تجزئ القوة .

قال كَلِيلَةُ: إِنَّ الثَّورَ لو لم يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِهِ رَأْيُهُ لكانَ كما تقول. ولكنَّ له مَعَ شِدَّتِهِ وَقَوَّتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلَ فماذا تَسْتَطِيعُ له ؟

قال دِمْنَةُ: إِنَّ الثَّورَ لكما ذَكَرْتَ في قَوَّتِهِ ورَأْيِهِ وَلكنَّهُ مَقَرُّ لي بِالْفَضْلِ وأنا خَلِيقٌ أن أَصْرَعَهُ كما صَرَعَتِ الأَرْنَبُ الأَسَدَ .

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد حدثتني عن الواشي الماهر المحتال، كيف يفسد بالنميمة المودة الثابتة بين المتحابين. فحدثني حينئذٍ بما كان من حالة دمنة وما آل أمره إليه بعد قتل شترية، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه حين راجع الأسد رأيهِ في الثور، وتحقق النميمة من دمنة، وما كانت حجتُهُ التي احتج بها؛ قال الفيلسوف: أنا وجدت في حديث دمنة أن الأسد حين قتل شترية ندم على قتله، وذكر قديم صحبته وجسيم خدمته، وأنه كان أكرم أصحابه عليه. وأخصهم منزلةً لديه، وأقربهم وأدناهم إليه؛ وكان يواصل له المشورة دون خواصه. وكان من أخص أصحابه عنده بعد الثور النمر. فاتفق أنه أمسى لنمر ذات ليلةٍ عند الأسد؛ فخرج من عنده جوف الليل يردي منزله، فاجتاز على منزل كليله ودمنة. فلما انتهى إلى الباب سمع كليله يعاتب دمنة على ما كان منه، ويلومه على النميمة واستعمالها؛ خصوصاً مع الكذب والبهتان في حق الخاصة. وعرف النمر عصيان دمنة وترك القبول له. فوقف يستمع ما يجري بينهما فكان فيما قال كليله لدمنة: لقد ارتكبت مركباً صعباً، ودخلت مدخلاً ضيقاً، وجنيت على نفسك جنايةً موبقةً، وعاقبتها وخيمةً؛ وسوف يكون مصرعك شديداً، إذا انكشف للأسد أمرُك، واطلع عليه، وعرف غدرك ومحالك، وبقيت لا ناصر لك؛ فيجتمع عليك الهوان والقتل، مخافة شرك، وحذراً من غوائلك؛ فلست بمتخذك بعد اليوم خليلاً، ولا مفش إليك سراً؛ لأن العلماء قد قالوا: تباعد عمن لا رغبة فيه. وأنا جدير بمباعدتك، والتماس

الخلاص لي مما وقع في نفس الأسد من هذا الأمر. فلما سمع النمر هذا من كلامهما قفل راجعاً، فدخل على أم الأسد؛ فأخذ عليها العهود ومواثيق أن لا تفشي ما يسر إليها، فعاهدته على ذلك فأخبرها بما سمع من كلام كليله ودمنة. فلما أصبحت دخلت على الأسد، فوجدته كئيباً حزيناً مهموماً: لما ورد عليه من قتل شترية. فقالت له: ما هذا الهم الذي قد أخذ منك، وغلب عليك؟ قال: يحزنني قتل شترية؛ إذ تذكرت صحبته ومواظبته على خدمتي، وما كنت أسمع من مناصحته. قالت أم الأسد: إن أشد ما شهد امرؤ بلا علم ولا يقين؟ ولولا ما قالت العلماء في إذاعة الأسرار وما فيها من الإثم والشنار، لذكرت لك ولأخبرتكم بما علمت. قال الأسد: إن أقوال العلماء لها وجوه كثيرة، ومعان مختلفة. وإني لأعلم صواب ما تقولين: وإن كان عندك رأي فلا تطويه عني؛ وإن كان قد أسر إليك أحد سرّاً فأخبريني به، وأطلعيني عليه، وعلى جملة الأمر. فأخبرته بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تخبره باسمه. وقال: إنني لم أجهل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها، وما يدخل على الرجل من العار في إذاعة الأسرار؛ ولكنني أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك؛ وإن وصل خطؤه وضرره إلى العامة فإصرارهم على خيانة الملك مما لا يدفع الشر عنهم، وبه يحتج السفهاء، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة. وأشد معارهم إقدامهم على ذي الحزم. فلما قضت أم الأسد هذا الكلام، استدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه. ثم أمر أن يؤتى بدمنة. فلما وقف بين يدي الأسد، ورأى ما هو عليه من الحزن والكآبة، التفت إلى بعض الحاضرين فقال: مالذي حدث؟ وما الذي أحزن الملك؟ فالتفتت أم الأسد إليه وقالت: قد أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين؛ ولن يدعك بعد اليوم حياً! قال دمنة: ما ترك الأول للآخر شيئاً: لأنه يقال: أشد الناس في

توقي الشر، يصيبه الشر قبل المستسلم له. فلا يكونن الملك
وخاصته وجنوده المثل السوء؛ وقد علمت أنه قد قيل: من صحب
الأشرار، وهو يعلم حالهم، كان أذاه من نفسه: ولذلك انقطعت
النساك بأنفسها عن الخلق، واختارت الوحدة على المخالطة،
وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها. ومن يجزي بالخير خيراً
وبالإحسان إحساناً إلا الله؟ ومن طلب الجزاء على الخير من
الناس. وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق
ومواقع الصواب وجميل السير؛ وقد قالت العلماء: من صدق ما
ينبغي أن يكذب، وكذب ما ينبغي أن يصدق، خرج من مصاف
العقلاء، وكان جديراً بالازدراء. فينبغي ألا يجعل الملك في أمري
بشبهة. ولست أقول هذا كراهةً للموت: فإنه وإن كان كريهاً، لا
منجى منه. وكل حي هالك. ولو كانت لي مائة نفس وأعلم أن
هوى الملك في إتلافهن، لطبت له بذلك نفساً.

فقال بعض الجند: لم ينطق بهذا لحبه بالملك، ولكن لخلاص
نفسه، والتماس العذر لها. فقال لها دمنة: ويلك! وهل علي في
التماس العذر لنفسى عيب؟ وهل أحد أقرب إلى الإنسان من
نفسه؟ وإذا لم يلتمس لها العذر، فمن يلتسمه؟ لقد ظهر منك ما لم
تكن تملك كتمانها من الحسد والبغضاء؛ ولقد عرف من سمع منك
ذلك أنك لا تحب لأحد خيراً؛ وأنتك عدو نفسك، فمن سواها
بالأولى. فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم، فضلاً عن أن يكون
مع الملك، وأن يكون ببابه. فلما أجابه دمنة بذلك، خرج مكتنباً
حزيناً مستحياً. فقالت أم الأسد لدمنة: لقد عجب منكم، أيها
المحتال، في قلة حيائك، وكثرة وقاحتك، وسرعة جوابك لمن
كلمك. قال دمنة: لأنك تنظرين إلى بعين واحدة، وتسمعين مني
بأذن واحدة، مع أن شقاوة جدي قد زوت عني كل شيء، حتى لقد
سعوا إلى الملك بالنميمة علي، ولقد صار من بباب الملك

لاستخفافهم به، وطول كرامته إياهم، وما هم فيه من العيش
والنعمة، لا يدرون في أي وقت ينبغي لهم الكلام، ولا متى يجب
عليهم السكوت. قالت: ألا تنظرون إلى هذا الشقي، مع عظم ذنبه،
كيف يجعل نفسه بريئاً كمن لا ذنب له؟ قال دمنة: إن الذين
يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء؛ كالذي يضع الرماد
موضعاً ينبغي أن يضع فيه الرمل؛ ويستعمل فيه السرجين،
والرجل الذي يلبس لباس المرأة، والمرأة التي تلبس لباس
الرجل، والضيف الذي يقول: أنا رب البيت، والذي ينطق بين
الجماعة بما لا يسأل عنه. وإنما الشقي من لا يعرف الأمور ولا
أحوال الناس لا يقدر على دفع الشر عن نفسه، ولا يستطيع ذلك.
قالت أم الأسد: أتظن أيها الغادر المحتال بقولك هذا أنك تخدع
الملك، ولا يسجنك؟ قال دمنة: الغادر الذي لا يأمن عدوه مكره،
وإذا استمكن من عدوه قتله على غير ذنب. قالت أم الأسد: أيها
الغادر الكذوب، أتظن أنك ناجٍ من عاقبة كذبك؟ وأن محالك هذا
ينفَعك مع عظم جرمك؟ قال دمنة: الكذوب إلي يقول ما لم يكن،
ويأتي بما لم يقل ولم يفعل، وكلامي واضحٌ مبينٌ. قالت أم الأسد:
العلماء منكم هم الذين يوضحون أمره بفضل الخطاب. ثم نهضت
فخرجت. فدفع الأسد دمنة إلى القاضي، فأمر بحبسه، فألقي في
عنقه حبلٌ، وانطلق به إلى السجن. فلما انتصف الليل أخبر كليله
أن دمنة في الحبس. فأتاه مستخفياً؛ فلما رآه وما هو عليه من
ضييق القيود، وخرج المكان، بكى، وقال له: ما وصلت إلى ما
وصلت إليه إلا لاستعمالك الخديعة والمكر، وإضرارك عن العظة؛
ولكن لم يكن لدي بدٌّ فيما مضى من إنذارك والنصيحة لك
والمسارعة إليك في خلوص الرغبة فيك: فإنه لكل مقام مقال؛
ولكل موضع مجال.

ولو كنت قصرت في عظمتك حين كنت في عافية، لكنت اليوم

شريكك في ذنبك؛ غير أن العجب دخل منك مدخلاً قهر رأيك،
وغلب على عقلك؛ وكنت أضرب لك الأمثال كثيراً، وأذكرك قول
العلماء. وقد قالت العلماء: إن المحتال يموت قبل أجله. قال دمنة:
قد عرفت صدق مقالتك. وقد قالت العلماء: لا تجزع من العذاب إذا
وقفت منك على خطيئة؛ ولأن تعذب في الدنيا بجرمك، خير من أن
تعذب في الآخرة بجهنم مع الإثم. قال كليله: قد فهمت كلامك؛
ولكن ذنبك عظيم، وعقاب الأسد شديد أليم. وكان بقربهما في
السجن فهذه معتقل يسمع كلامهما، ولا يريانه؛ فعرف معاتبة كليله
لدمنة على سوء فعله، وما كان منه؛ وأن دمنة مقرّ بسوء عمله،
وعظيم ذنبه؛ فحفظ المحاورة بينهما، وكنتمها ليشهد بها إن سئل
عنها. ثم إن كليله أنصرف إلى منزله، ودخلت أم الأسد حين
أصبحت على الأسد؛ وقالت له: يا سيد الوحوش، حوشيت أن
تنسى ما قلت بالأمس؛ وأنت أمرت به لوقته؛ وأرضيت به رب
العباد. وقد قالت العلماء: لا ينبغي للإنسان أن يتوانى في الجد
للتقوى؛ بل لا ينبغي أن يدافع عن ذنب الأثيم. فلما سمع الأسد
كلام أمه، أمر أن يحضر النمر، وهو صاحب القضاء. فلما حضر
قال له وللجواس العادل: اجلسا في موضع الحكم، وناديا في الجند
صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا في حال دمنة، ويبحثوا
في شأنه، ويفحصوا عن ذنبه، ويثبتوا قوله وعذره في كتب
القضاء؛ وارفعوا إلى ذلك يوماً فيوماً. فلما سمع ذلك النمر
والجواس العادل وكان هذا الجواس عم الأسد، قالوا: سمعاً وطاعةً
لما أمر الملك. وخرجا من عنده؛ فعملاً بمقتضى ما أمرهما به؛
حتى إذا مضى من اليوم الذي جلسوا فيه ثلاث ساعات، أمر
القاضي أن يؤتى بدمنة؛ فأتى به، فأوقف بين يديه، والجماعة
حضور. فلما استقر به المكان نادى سيد الجمع بأعلى صوته: أيها
الجمع. إنكم قد علمتم أن سيد السباع لم يزل منذ قتل شترية خائر

النفس، كثير الهم والحزن، يرى أنه قد قتل شترية بغير ذنب؛ وأنه أخذه بكذب دمنة ونميته. وهذا القاضي قد أمر أن يجلس مجلس القضاء، ويبحث عن شأن دمنة. فمن علم منكم شيئاً في أمر دمنة من خير أو شر، فليقل ذلك، وليتكلم به على رءوس الجمع والأشهاد، ليكون القضاء في أمره أولى، والعجلة من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل. فعندها قال القاضي: أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم، ولا تكتموا ما عرفت من أمره؛ واحذروا في الستر عليه ثلاث خصال: إحداهن، وهي أفضلهن، ألا تزدروا فعله، ولا تعدوه يسيراً: فمن أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة؛ ومن علم من أمر هذا الكتاب الذي اتهم البريء بكذبه ونميته شيئاً، فستر عليه فهو شريكه في الإثم والعقوبة. والثانية إذا اعترف المذنب بذنبه، كان أسلم له، وأحرى بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا. والثالثة ترك مراعاة أهل الذم والفجور، وقطع أسباب موصلاتهم ومودتهم عن الخاصة والعامة؛ فمن علم من أمر هذا المحتال شيئاً، فليتكلم به على رءوس الأشهاد ممن حضر، ليكون ذلك حجة عليه؛ وقد قيل: إنه من كتم شهادة ميت، ألجم بلجام من نار يوم القيامة؛ فليقل كل واحد منكم ما علم. فلما سمع ذلك الجمع كلامه، أمسكوا عن القول. فقال دمنة: ما يسكتكم؟ تكلموا بما علمتم؛ واعلموا أن لكل كلمة جواباً. وقد قالت العلماء: من يشهد بما لا ي، ويقول ما لا يعلم، أصابه ما أصاب الطبيب الذي قال لما لا يعلمه: إني أعلمه. قالت الجماعة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم، وكان ذا فطنة فيما يجري على يديه من المعالجات، فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره. وكان لملك تلك المدينة ابنة قد زوجها لابن أخ له، فعرض لها ما يعرض للحوامل من الأوجاع. فجاء

بهذا الطبيب، فلما حضر، سأل الجارية عن وجعها وما تجد، فأخبرته، فعرف دائها ودواءها، وقال: لو كنت أبصر، لجمعت الأخلاط على معرفتي بأجناسها، ولا أثق في ذلك بأحد غيري. وكان في المدينة رجل سفيه، فبلغه الخبر، فأتاهم وادعى علم الطب، وأعلمهم انه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة، فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته، فلما دخل السفيه الخزانة، وعرضت عليه الأدوية، ولا يدري ما هي، ولا له بها معرفة، أخذ في جملة ما أخذ منها صرة فيها سم قاتل لوقته، وخلطه في الأدوية، ولا علم له به، ولا معرفة عنده بجنسه. فما تمت أخلاط الأدوية، سقى الجارية منه، فماتت لوقتها. فلما عرف الملك ذلك، دعا بالسفيه، فسقاه من ذلك الدواء، فمات من ساعته. وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل على القائل والعامل من الزلة بالشبه في الخروج عن الحد، فمن خرج منكم عن حده أصابه ما أصاب ذلك الجاهل، ونفسه الملوثة.

وقد قالت العلماء: ربما جرى المتكلم بقوله. والكلام بين أيديكم: فانظروا لأنفسكم. فتكلم سيد الخنازير، لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد، فقال: يا أهل الشرف من العلماء، اسمعوا مقالتي، وعوا بأحلامكم كلامي، فالعلماء قالوا في شأن الصالحين: إنهم يعرفون بسيماهم، وأنتم معاشر ذوي الاقتدار، بحسن صنع الله لكم، وتمام نعمته لديكم، تعرفون الصالحين بسيماهم وصورهم، وتخبرون بالشيء الصغير، وهاهنا أشياء كثيرة تدل على هذا الشقي دمنة، وتخبر عن شره، فاطلبوها على ظاهر جسمه: لتستيقنوا وتسكنوا إلى ذلك. قال القاضي لسيد الخنازير: قد علمت، وعلم الجماعة الحاضرون، أنك عارف بما في الصور من علامات السوء، ففسر لنا ما تقول، وأطلعنا على ما ترى في

صورة هذا الشقي. فأخذ سيد الخنازير يذم دمنة، وقال: إن العلماء قد كتبوا وأخبروا: أنه من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهي لا تزال تختلج، وكان أنفه مائلاً إلى جنبه الأيمن، فهو شقي خبيث. قال له دمنة: شأنك عجب، أيها القدر، ذو العلامات الفاضحة القبيحة، ثم العجب من جرائتك على طعام الملك، وقيامك بين يديه، مع ما بجسمك من القدر والقبح، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك، أفتكلم في النقي الجسم الذي لا عيب فيه؟ ولست أنا وحدي أطلع على عيبك، لكن جميع من حضر قد عرف ذلك. وقد كان يحجزني عن إظهاره ما بيني وبينك من الصداقة. فأما إذا قد كذبت عليّ وبهتني في وجهي، وقمت بعداوتي، فقلت ما قلت فيّ بغير علم على رؤوس الحاضرين، فأني أقتصر على إظهار ما أعرف من عيوبك، وتعرف الجماعة، وحق على من عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك على طعامه، فلو كلّفت أن تعمل الزراعة لكنت جديراً بالخذلان فيها، فالأحرى بك ألاّ تدنو إلى عمل من الأعمال، وألاّ تكون دباغاً ولا حجاماً لعامّي فضلاً عن خاصّ خدمة الملك. قال سيد الخنازير: أتقول لي هذه المقالة، وتلقاني بهذا الملقى؟ قال دمنة، نعم، وحقاً قلت فيك، وإياك أعني، أيها الأعرج المكسور الأفدع الرجل، المنفوخ البطن، الأفلح الشفتين، السيء المنظر والمخبر. فلما قال ذلك دمنة، تغير وجه سيد الخنازير واستعبر واستحى، وتلجلج لسانه، واستكان وفتر نشاطه. فقال دمنة، حين رأى انكساره وبكاءه: إنما ينبغي أن يطول بكاؤك، إذا اطلع الملك على قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه، وحال بينك وبين خدمته، وأبعدك عن حضرته. ثم إن شغباً قد جربه فوجد فيه أمانة وصدقاً، فرتبه في خدمته، وأمره أن يحفظ ما يجري بينهم، ويطلعه على ذلك. فقام الشغب فدخل على الأسد فحدثه

بالحديث كله على جليته. فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله، وأمر ألا يدخل عليه، ولا يرى وجهه، وأمر بدمنة أن يسجن، وقد مضى من النهار أكثره، ورجع كل واحد منهم إلى منزله.

ثم إن شغبراً يقال له روزبة، كان بينه وبين كليلة إخاء ومودة، وكان عند الأسد وجيهاً، وعليه كريماً، واتفق أن كليلة أخذته الوجد إشفاقاً وحذراً على نفسه وأخيه، فمرض ومات، فانطلق هذا الشغبير إلى دمنة، فأخبره بموت كليلة فبكى وحزن، وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الصفي؟؟؟؟! ولكن أحمد الله تعالى حيث لم يمت كليلة حتى أبقى لي من ذوي قرابتي أخاً مثلك: فإني قد وثقت بنعمة الله تعالى وإحسانه إليّ فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك لي، وقد علمت أنك رجائي وركني فيما أنا فيه، فأريد من إنعامك أن تنطلق إلى مكان كذا، فتتظر إلى ما جمعته أنا وأخي بحيلتنا وسعيينا ومشينة الله تعالى، فتأتيني به، ففعل الشغبير ما أمره به دمنة. فلما وضع المال بين يديه أعطاه شطره، وقال له: إنك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك، فتفرغ لشأني، واصرف اهتمامك إلي، واسمع ما أذكر به عند الأسد، إذا رفع إليه ما يجري بيني وبين الخصوم، وما يبدو من أم الأسد في حقي، وما ترى من متابعة الأسد لها، ومخالفته إياها في أمري، وأحفظ ذلك كله. فأخذ الشغبير ما أعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد. فانطلق إلى منزله فوضع المال فيه. ثم إن الأسد بكر من الغد فجلس، حتى إذا مضى من النهار ساعتان، استأذن عليه أصحابه فأذن لهم، فدخلوا عليه، ووضعوا الكتاب بين يديه. فلما عرف قولهم وقول دمنة دعا أمه فقرأ عليها ذلك. فلما سمعت ما في الكتاب نادى بأعلى صوتها: إن أنا أغلظت في القول فلا تلومني: فإنك لست تعرف ضرك من نفعك. أليس هذا مما كنت

أنهاك عن سماعه: لأنه كلام هذا المجرم المسمي إيلنا، الغادر بدمتنا؟ ثم إنها خرجت مغضبة، وذلك بعين الشغبير الذي أخاه دمنة وبسمعه. فخرج في أثرها مسرعاً، حتى أتى دمنة، فحدثه بالحديث. فبينما هو عنده إذ جاء رسول انطلق بدمنة إلى الجمع عند القاضي. فلما مثل بين يدي القاضي استفتح سيد المجلس فقال: يا دمنة قد أنبأني بخبرك الأمين الصادق وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا: لأن العلماء قالوا: إن الله تعالى جعل الدنيا سبباً ومصادقاً للآخرة: لأنها دار الرسل والأنبياء الدالين على الخير الهادين إلى الجنة الداعين إلى معرفة الله تعالى. وقد ثبت شأنك عندنا وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله إلا أن سيدنا أمرنا بالعودة في أمرك والفحص عن شأنك وإن كان عندنا ظاهراً بيناً. قال دمنة: أراك أيها القاضي لم تتعود العدل في القضاء وليس في عدل الملك دفع المظلومين ومن لا ذنب له إلى قاض غير عادل بل المخاصمة عنهم والذود. فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم؟ وتعجل ذلك موافقة لهواك ولم تمض بعد ذلك ثلاثة أيام. ولكن صدق الذي قال: إن الذي تعود عمل البر هين عليه عمله وإن أضربه. قال القاضي: إن نجد في كتب الأولين: أن القاضي ينبغي له أن يعرف عمل المحسن والمسيء ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فإذا ذهب إلى هذا ازداد المحسنون حرصاً على الإحسان والمسيئون إجتنباً للذنوب. والرأي لك يا دمنة أن تنظر الذي وقعت فيه وتعترف بذنبك وتقر به وتتوب. فأجابه دمنة: إن صالحى القضاة لا يقطعون بالظن ولا يعملون به لا في الخاصة ولا في العامة: لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق شيئاً. وأنتم إن ظننتم أنى مجرم فيما فعلت فإنى أعلم بنفسى منكم وعلمي بنفسى يقين لاشك فيه وعلمكم بى غاية الشك وإنما قبح أمرى عندكم أنى سعيت بغيرى فما عذرى عندكم

إذا سعيت بنفسي كاذبا عليها فأسلمتها للقتل والعطب على معرفة
مني ببراءتي وسلامي مما قرفت به؟ ونفسي لأعظم الأنفس على
حرمة وأوجبها حقاً. فلو فعلت هذا بأقصاصكم وأدناكم، لما وسعني
في ديني، ولا حسن بي في مروءتي، ولا حق لي أن أفعله فكيف
أفعله بنفسي؟ فأكفف أيها القاضي عن هذه المقالة: فإنها إن كانت
منك نصيحة فقد أخطأت موضعها وإن كانت خديعة فإن أقبح
الخداع ما نظرتة وعرفت أنه من غير أهله مع أن الخداع والمكر
ليس من أعمال صالحى القضاة ولا تقاة الولاة واعلم أن قولك مما
يتخذه الجهال والأشرار سنة يقتدون بها: لأن أمور القضاة يأخذ
بصوابها أهل الصواب وبخطئها أهل الخطأ والباطل والقليلو
الورع وأنا خائف عليك أيها القاضي من مقالتك هذه أعظم الرزايا
والبلايا وليس من البلاء و المصيبة أنك لم تزل في نفس الملك
والجند والخاصة والعامة فاضلاً في رأيك مقتعاً في عدلك مرضياً
في حكمك وعفافك وفضلك وإنما البلاء كيف أنسيت ذلك في
أمري. فلما سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة نهض فرفعه إلى
الأسد على وجهه فنظر في الأسد ثم دعا أمه فعرضه عليها.
فقالت حين تدبرت كلام دمنة للأسد: لقد صار اهتمامي بما أتخوف
من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه حتى يقتلك أو يفسد عليك أمرك
أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك في الغش والسعاية
حتى قتلت صديقك. بغير ذنب. فوق قولها في نفسه. فقال لها:
أخبريني عن الذي أخبرك عن دمنة بما أخبرك فيكون حجة لي في
قتل دمنة. فقالت: إني لأكره أن أفشي سر استكتمنيه، فلا يهنئني
سروري بقتل دمنة إذا تذكرت أنني استظهرت عليه بركوب ما
نهت عنه العلماء من كشف السر ولكنى أطالب الذي استودعني
أن يجعلني في حل من ذكره لك ويقوم هو بعلمه وما سمع منه. ثم
انصرفت وأرسلت إلى النمر وذكرت له ما يحق عليه من حسن

معاونته الأسد على الحق وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصر المظلومين وتثبيت حجة الحق في الحياة والممات: فإنه قد قالت العلماء: من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة. فلم تزل به حتى قام فدخل على الأسد فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة. فلما شهد النمر بذلك أرسل الفهد المحبوس الذي سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد فقال: إن عندي شهادة. فأخرجوه. فشهد على دمنة بما سمع من إقراره. فقال لهما الأسد: ما منعكما أن تقوموا بشهادتكما وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة فقال كل واحد منهما: قد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكماً فكرهنا التعرض لغير ما يمضي به الحكم حتى إذا شهد أحدهما قام الآخر بشهادته فقبل الأشد قولهما. وأمر بدمنة أن يقتل في حبسه: فقتل أشنع قتلة. فمن نظر في هذا فليعلم أن من أراد منفعة نفسه بضر غيره بالخلابة والمكر فإنه سيجري على خلابته ومكره. ياً في حكمك وعفافك وفضلك وإنما البلاء كيف أنسيت ذلك في أمري. فلما سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة نهض فرفعه إلى الأسد على وجهه فنظر في الأسد ثم دعا أمه فعرضه عليها. فقالت حين تدبرت كلام دمنة للأسد: لقد صار اهتمامي بما أتخوف من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه حتى يقتلك أو يفسد عليك أمرك أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك في الغش والسعاية حتى قتلت صديقك. بغير ذنب. فوق قولها في نفسه. فقال لها: أخبريني عن الذي أخبرك عن دمنة بما أخبرك فيكون حجة لي في قتل دمنة. فقالت: إني لأكره أن أفشي سر استكتمنيه، فلا يهتني سروري بقتل دمنة إذا تذكرت أنني استظهرت عليه بركوب ما نهت عنه العلماء من كشف السر ولكني أطالب الذي استودعني أن يجعلني في حل من ذكره لك ويقوم هو بعلمه وما سمع منه. ثم انصرفت

وأرسلت إلى النمر وذكرت له ما يحق عليه من حسن معاونته الأسد على الحق وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصر المظلومين وتثبيت حجة الحق في الحياة والممات: فإنه قد قالت العلماء: من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة. فلم تزل به حتى قام فدخل على الأسد فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة. فلما شهد النمر بذلك أرسل الفهد المحبوس الذي سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد فقال: إن عندي شهادة. فأخرجوه. فشهد على دمنة بما سمع من إقراره. فقال لهما الأسد: ما منعكما أن تقوموا بشهادتكما وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة فقال كل واحد منهما: قد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكماً فكرهنا التعرض لغير ما يمضي به الحكم حتى إذا شهد أحدهما قام الآخر بشهادته فقبل الأشد قولهما. وأمر بدمنة أن يقتل في حبسه: فقتل أشنع قتلة. فمن نظر في هذا فليعلم أن من أراد منفعة نفسه بضر غيره بالخلافة والمكر فإنه سيجري على خلافته ومكره.

باب الحمامة المطوقة

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذب وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك. فحدثني، إن رأيت؛ عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض؟ قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئاً فالإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه. ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة

والجرذ والظبي والغراب. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال بيدبا:
زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين، عند مدينة داهر، مكان كثير
الصيد، ينتابه الصيادون؛ وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة
الأغصان ملتفة الورق فيها وكر غراب فبينما هو ذات يوم ساقط
في وكره إذ بصر بصياد قبيح المنظر، سيئ الخلق، على عاتقه
شبكة، وفي يده عصا مقبلا نحو الشجرة، فذعر منه الغراب؛
وقال: لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان: إما حيني وإما حين
غيري. فلأثبتن مكاني حتى أنظر ماذا يصنع. ثم إن الصياد نصب
شبكته، ونثر عليها الحب، وكمن قريبا منها، فلم يلبث إلا قليلا،
حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة، وكانت سيدة الحمام
ومعها حمام كثير؛ فعميت هي وصواحبها عن الشرك، فوقعن على
الحب يلتقطنه فعلقن في الشبكة كلهن؛ وأقبل الصياد فرحا
مسرورا. فجعلت كل حمامة تضرب في حبالها وتلتمس
الخلاص لنفسها. قالت المطوقة: لا تخاذلنا في المعالجة ولا تكن
نفس إحداكن أهم إليهما نفس صاحبتها؛ ولكن نتعاون جميعا
فنقلع الشبكة فينجو بعضنا ببعض؛ فقلعن الشبكة جميعهن
بتعاونهن، وعلون في الجو؛ ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظن
أنهن لا يجاوزن إلا قريبا ويقعن. فقال الغراب: لأتبعهن وأنظرو
ما يكون منهن. فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن. فقالت
للحمام: هذا الصياد مجد في طلبكن، فإن نحن أخذنا في الفضاء لم
يخف عليه أمرنا ولم يزل يتبعنا وإن نحن توجهنا إلى العمران
خفي عليه أمرنا، وانصرف. وبمكان كذا جرذ هو لي أخ؛ فلو
انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك. ففعلن ذلك. وأيس الصياد منهن
وانصرف. وتبعهن الغراب. فلما انتهت الحمامة المطوقة إلى
الجرذ، أمرت الحمام أن يسقطن، فوقعن؛ وكان للجرذ مائة حجر
للمخاوف فنادته المطوقة باسمه، وكان اسمه زيرك، فأجابها

الجرذ من حجره: من أنت؟ قالت: أنا خليلتك المطوقة. فأقبل إليها الجرذ يسعى، فقال لها: ما أوقعك في هذه الورطة؟ قالت له: ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا هو مقدر على من تصيبه المقادير، وهي التي أوقعني في هذه الورطة؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى مني وأعظم أمرا؛ وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضي ذلك عليهما. ثم إن الجرذ أخذ في قرص العقد الذي فيه المطوقة. فقالت له المطوقة: ابدأ بقطع عقد سائر الحمام، وبع ذلك أقبل على عقدي؛ وأعادت ذلك عليه مرارا، وهو لا يلتفت إلى قولها، فلما أكثرت عليه القول وكررت، قال لها: لقد كررت القول علي كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا لك عليها شفقة، ولا ترعين لها حقا. قالت: إني أخاف، إن أنت بدأت بقطع عقدي أن تمل وتكسل عن قطع ما بقي؛ وعرفت أنك إن بدأت بهن قبلي، وكنت أنا الأخيرة لم ترض وإن أدركك الفتور أن أبقى في الشرك قال الجرذ: هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك. ثم إن الجرذ أخذ في قرص الشبكة حتى فرغ منها، فانطلقت المطوقة وحمامها معها.

فلما رأى الغراب صنع الجرذ، رغب في مصادقته، فجاء وناداه باسمه، فأخرج الجرذ رأسه، فقال له: ما حاجتك؟ قال: إني أريد مصادقتك. قال الجرذ: ليس بيني وبينك تواصل، وإنما العاقل ينبغي له أن يلتمس ما يجد إليه سبيلا، ويترك التماس ما ليس إليه سبيل، فإنما أنت الآكل، وأنا طعام لك. قال الغراب: إن أكلي إياك، وإن كنت لي طعاما، مما لا يغني عني شيئا؛ وإن مودتك أنس لي مما ذكرت ولست بحقيق، إذا جئت أطلب مودتك، أن تردني خائبا. فإنه قد ظهر لي منك من حسن الخلق ما رغبتني فيك، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك: فإن العاقل لا يخفي فضله،

وإن هو أخفاه؛ كالمسك الذي يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح. قال الجرذ. إن أشد العداوة عداوة الجوهر: وهي عداوتان: منها ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد. فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد، ومنها ما قوته من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنور وبينك وبينك: فإن العداوة التي بيننا ليست تضرك، وإنما ضررها عائد علي: فإن الماء لو أطل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صب عليها، وإنما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها في كفه، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب .

قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأنت خليك أن تأخذ بفضل خليقتك، وتعرف صدق مقالتي ولا تصعب علي الأمر بقولك: ليس إلى التواصل بيننا سبيل: فإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها. ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب: بطيء الانكسار، سريع الإعادة، هين الإصلاح، إن أصابه ثلم أو كسر، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بطيء اتصالها. ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ولا وصل له أبدا. والكريم يود الكريم واللئيم لا يود أحدا إلا عن رغبة أو رهبة. وأنا إلى ودك ومعروفك محتاج: لأنك كريم وأنا ملازم لبابك غير ذائق طعاما حتى تؤاخي. قال الجرذ: قد قبلت إخاءك: فإني لم أردد أحدا عن حاجة قط، وإنما بدأت بما بدأتك به إرادة التوثق لنفسك فإن أنت غدرت بي لم تقل: إني وجدت الجرذ سريع الانخداع. ثم خرج من حجره، فوقف عند الباب. فقال له الغراب: ما يمنعك من الخروج إلي، والاستئناس بي؟ فهل في نفسك بعد ذلك مني ريبة؟ قال الجرذ: إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس، وذات اليد. فالمتبازلون ذات النفس هم

الأصفياء، وأما المتبازلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض. ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فإنما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه. فتعاطى ذات النفس أفضل من تعاطى ذات اليد. وإني وثقت منك بذات نفسك، ومنحتك من نفسي مثل ذلك. وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظن بك، ولكن قد عرفت أن لك أصحابا جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم في رأيك .

قال الغراب: إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا، ولعدو صديقه عدوا؛ وليس لي بصاحب ولا صديق من لا يكون لك محبا؛ وإنه يهون عن قطيعة من كان كذلك من جوهرى. ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب فتصافحا وتصافيا، وأنس كل واحد منهما بصاحبه؛ حتى إذا مضت لهما أيام قال الغراب للجرذ: إن جحرى قريب من طريق الناس، وأخاف أن يرمىك بعض الصبيان بحجر؛ ولي مكان فى عزلة، ولي فيه صديق من السلاحف وهو مخصب من السمك ونحن واجدون هناك ما نأكل فأريد أن أنطلق بك إلى هناك لنعيش آمين. قال الجرذ: إن لي أخبار وقصصا سأقصها عليك إذا انتهينا حيث تريد فافعل ما تشاء. فأخذ الغراب بذنب الجرذ وطار به حتى بلغ به حيث أراد. فلما دنى من العين التى فيها السلحفاة بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ فذعرت منه ولم تعلم أنه صاحبها، فناداه فخرجت إليه وسألته من أين أقبلت؟ فأخبرها بقصته حين تبع الحمام وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها. فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ عجبت من عقله ووفاءه ورحبت به وقالت له: ما ساقك إلى هذه الأرض؟ قال الغراب للجرذ: اقصص على الأخبار التى زعمت أنك تحدثني

بها فأخبرني بها مع جواب ما سألت السلحفاة: فإنها عندك بمنزلتني، فبدأ الجرذ وقال: كان منزلي أول أمري بمدينة ماروت في بيت رجل ناسك وكان خاليا من الأهل والعيال، وكان يؤتى في كل يوم بسلة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقي، وكنت أرصد الناسك، حتى يخرج وأثب إلى السلة، فلا أدع فيها طعاما إلا أكلته، وأرمي به إلى الجرذان. فجهد الناسك مرارا أن يعلق السلة مكانا لا أناله فلم يقدر على ذلك، حتى نزل به ذات ليلة ضيف فأكلا جميعا، ثم أخذنا في الحديث فقال الناسك للضيف: من أي أرض أقبلت؟ وأين تريد الآن؟ وكان الرجل قد جاب الآفاق ورأى عجائب فأنشأ يحدث الناسك عما وطئ من البلاد، ورأى من العجائب، وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه لينفرني عن السلة، فغضب الضيف وقال: أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثي! فما حملك على أن سألتني؟ فاعتذر إليه الناسك، وقال: إنما أصفق بيدي لأنفر جرذا قد تحيرت في أمره، ولست أضع في البيت شيئا إلا أكله، فقال الضيف: جرذ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة؟ فقال الناسك: فما أستطيع له حيلة. قال الضيف: لقد ذكرتني قول الذي قال: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور! قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

قال الضيف: نزلت مرة على رجل بمكان كذا، فتعشنا، ثم فرش لي. وانقلب الرجل على فراشه، فسمعتة يقول في آخر الليل لامرأته: إني أريد أن أدعو غدا رهطا ليأكلوا عندنا، فاصنعي لهم طعاما. فقالت المرأة: كيف تدعو الناس إلى طعامك، وليس في بيتك فضل عن عيالك؟ وأنت رجل لا تبقي شيئا ولا تدخره. قال الرجل: لا تندمي على شيء أطعمناه وأنفقناه: فإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب. قالت المرأة وكيف كان

ذلك؟ قال الرجل: زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانص، ومعه قوصه ونشابه فلم يجاوز غير بعيد، حتى رمى ظبيا، فحملة ورجع طالبا منزله، فاعترضه خنزير بري فرماه بنشابة نفذت فيه، فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس، ووقعا ميتين، فأتى عليهما ذئب فقال: هذا الرجل والظبي والخنزير يكفيني أكلهم مدة، ولكن أبدأ بهذا الوتر فأكله، فيكون قوت يومي، فعالج الوتر حتى قطعه فلما انقطع طارت سية القوس فضربت حلقه فمات. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمي أن الجمع والادخار وخيم العاقبة. فقالت المرأة: نعم ما قلت! وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفي ستة نفر أو سبعة، فأنا غادية على اصطناع الطعام، فادع من أحببت. وأخذت المرأة حين أصبحت سمسما فقشرته، وبسطته في الشمس ليجف، وقالت لغلام لهم: اطرده عنه الطير والكلاب وتفرغت المرأة لصنعها؛ وتغافل الغلام عن السمسم؛ فجاء كلب، فعاث فيه؛ فاستقذرتة المرأة، وكرهت أن تصنع منه طعاما ما؛ فذهبت به إلى السوق، فأخذت به مقايضة سمسما غير مقشور: مثلاً بمثل، وأنا واقف في السوق؛ فقال رجل: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور. وكذلك قلتي في هذا الجرد الذي ذكرت أنه على غير علة ما يقدر على ما شكوت منه. فالتمس لي فأسا لعلني أحترقه جحره فأطلع على بعض شأنه. فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسا، فأتى بها الضيف، وأنا حينئذ في غير جحري أسمع كلامهما، وفي جحري كيس فيه مائة دينار، لا أدري من وضعها، فاحتقر الضيف حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال الناسك: ما كان هذا الجرد يقوى على الوثوب حيث كان يثب إلا بهذه الدنانير: فإن المال جعل له قوة وزيادة في الرأي والتمكن. وسترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب. فلما كان من الغد اجتمع

الجرذان التي كانت معي فقالت: قد أصابنا الجوع، وأنت رجائنا فانطلقت ومعني الجرذان إلى المكان الذي كنت أثب منه إلى السلة فحاولت ذلك مرارا: فلم أقدر عليه فاستبان للجرذان نقص حالي فسمعتهم يقلن: انصرفن عنه، ولا تطمعن فيما عنده: فإننا نرى له حالا لا نحسبه إلا قد احتاج معها إلى من يعوله. فتركني، ولحقن بأعدائي وجفونني، وأخذن في غيبيتي عند من يعاديني ويحسدني. فقلت في نفسي: ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ووجدت من لا مال له، إذا أراد أمرا قعد به العدم عما يريده: كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء: لا يمر إلى نهر ولا يجري إلى مكان، فتشربه أرضه. ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له: ومن لا مال له لا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة له: لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه: فإن الشجرة النابتة في السباح، المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس .

ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبا إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة. ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا، وأساء به الظن من كان يظن فيه حسنا: فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعا. وليس من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذم، فإن كان شجاعا قيل: أهوج، وإن كان جوادا سمي مبذرا، وإن كان حلما سمي ضعيفا، وإن كان وقورا سمي بليدا. فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللائم: فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى، فيخرج منه سما فيبتلعه كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم. وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناس، فجعل الناسك نصيبه في خريطة عند رأسه ولما

جن الليل، فطمعت أن أصيب منها شيئا فأرده إلى جحري،
ورجوت أن يزيد ذلك في قوتي، ويراجعني بسببه بعض أصدقائي.
فانطلقت إلى الناسك وهو نائم، حتى انتهيت عند رأسه، ووجدت
الضيف يقظان، وبيده قضيب، فضربني على رأسي ضربة
موجعة، فسعيت إلى جحري. فلما سكن عني الألم، هيجني
الحرص والشره، فخرجت طمعا كطمعي الأول، وإذا الضيف
يرصدني، فضربني ضربة أسالت مني الدم، فتقلبت ظهرا لبطن
إلى جحري، فخررت مغشيا علي، فأصابني من الوجع ما بغض
إلى المال رعدة وهيبة. ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما
يسوقه حرص والشره، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب
ونصب، ووجدت تجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون علي
من بسط اليد إلى السخى بالمال، ولم أر كالرضا شيئا، فصار
أمري إلى أن رضيت وقتعت، وانتقلت من بيت الناسك إلى البرية،
وكان لي صديق من الحمام، فسيقت إلي بصداقته صداقة. ثم ذكر
لي الغراب ما بينك وبينه من المودة، وأخبرني أنه يريد إتيانك،
فأحببت أن آتيك معه، فكرهت الوحدة، فإنه لا شيء من سرور
الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم.
وجربت: فعلمت أنه لا ينبغي للعاقل أن يلتمس من الدنيا غير
الكفاف الذي يدفع به الأذى عن نفسه: وهو اليسير من المطعم
والمشرب، إذا اشتمل على صحة البدن ورفاهة البال .

ولو أن رجلا وهبت له الدنيا بما فيها لم يك ينتفع من ذلك إلا
بالقليل الذي يدفع به عن نفسه الحاجة: فأقبلت مع الغراب إليك
على هذا الرأي، وأنا لك أخ، فلتكن منزلتي عندك كذلك. فلما فرغ
الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق عذب، وقالت: قد
سمعت كلامك، وما أحسن ما تحدثت به! إلا أنني رأيتك تذكر بقايا

أمر هي في نفسك. واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن يتداو به، لم يغن به شيئاً، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة. فاستعمل رأيك، ولا تحزن لقلة المال: فإن الرجل ذا المروعة قد يكرم على غير مال: كالأسد الذي يهاب، وإن كان رابضاً، والغني الذي لا مروعة له يهان وإن كان كثير المال: كالكلب لا يحفل به، وإن طوق وخلخل بالذهب. فلا تكبرن عليك غربتك: فإن العاقل لا غربة له: كالأسد الذي لا ينقلب إلا ومعه قوته. فلتحسن تعاهدك لنفسك: فإنك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره. وإنما جعل الفضل للحازم البصير بالأمر، وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه. وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخلة الأشرار، والبناء على غير أساس، والمال الكثير: فالعاقل لا يحزن لقلة، وإنما مال العاقل عقله، وما قدم من صالح، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل ولا يواخذ بشيء لم يعمل، وهو خليق ألا يغفل عن أمر آخرته: فإن الموت لا يأتي إلا بغتة، ليس له وقت معين. وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم. ولكن رأيت أن أقضي مالك من حق قبلنا: لأنك أخونا وما عندنا من النصح مبذول لك. فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ وردها عليه وملاطفتها إياه فرح بذلك وقال: لقد سررتني وأنعمت علي، وأنت جديرة أن تسري نفسك بمثل ما سررتني به. وإن أولى أهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد: فإن الكريم إذا عثر لا يأخذ بيده إلا الكرام: كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلا الفيلة. فبينما الغراب في كلامه، إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى، فذعرت منه السلحفاة، فغاصت في الماء، وخرج الجرذ إلى جحره، وطار الغراب فوق على شجرة .

ثم إن الغراب حلق في السماء لينظر هل للظبي طالب؟ فنظر فلم ير شيئا؛ فنَادى الجرذ والسلحفاة، وخرجا، فقالت السلحفاة للظبي، حين رآته ينظر إلى الماء: اشرب إن كان بك عطش، ولا تخف: فإنه لا خوف عليك. فدنا الظبي فرحبت به السلحفاة وحيته وقالت له: من أين أقبلت؟ قال: كنت أسنح بهذه الصحارى فلم تزل الأساورة تطردني من مكان إلى مكان حتى رأيت اليوم شبعا. فخفت أن يكون قانصا قالت: لا تخف: فإننا لم نرى هاهنا قانصا قط، ونحن نبذل لك ودنا ومكاننا والماء والمرعى كثيران عندنا فارغب في صحبتنا. فأقام الظبي معهم وكان لهم عريش يجتمعون فيه ويتذكرون الأحاديث والأخبار. فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش غاب الظبي فتوقعوه ساعة فلم يأت. فلما أبطأ أشفقوا أن يكون قد أصابه عنت، فقال الجرذ والسلحفاة للغراب: انظر هل ترى مما يلينا شيئا؟ فحلق الغراب في السماء فنظر: فإذا الظبي في الحبال مقتنصا فانقض مسرعا فأخبرهما بذلك فقالت السلحفاة والغراب للجرذ: هذا أمر لا يرجى فيه غيرك، فأغث أخاك، فسعى الجرذ مسرعا، فأتى الظبي، فقال له: كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟ قال الظبي: هل يغني الكيس مع المقادير شيئا، فبينما هما في الحديث إذ وافتهما السلحفاة فقال لها الظبي: ما أصبت بمجيئك إلينا: فإن القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجرذ الحبال استبقه عدوا، وللجرذ أحجار كثيرة، والغراب يطير وأنت ثقيلة: لا سعى لك ولا حركة وأخاف عليك القانص. فقالت: لا عيش مع فراق الأحبة وإذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤاده، وحرَم سروره، وغشى بصره، فلم ينتهي كلامهما حتى وافى القانص، ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك، فنجا الظبي بنفسه، وطار الغراب محلقا

ودخل الجرذ بعض الأحجار ولم يبق غير السلحفاة، ودنا الصياد فوجد حبالته مقطعة، فنظر يمينا وشمالا فلم يجد غير السلحفاة تدب، فأخذها وربطها، فلم يلبث الغراب والجرذ والطبي أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة فاشتد حزنهم، وقال الجرذ: ما أرانا نجاوز عقبة من البلاء إلا صرنا في أشد منها. ولقد صدق الذي قال: لا يزال الإنسان مستمرا في إقباله ما لم يعثر، فإذا عثر لج به العثار وإن مشى في جدد الأرض. وحذري على السلحفاة خير الأصدقاء التي خلتها ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة، ولكنها خلة الكرم والشرف، خلة هي أفضل من خلة الوالد لولده، خلة لا يزيلها إلا الموت. ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب، ولا يدوم له شيء، ولا يلبث معه أمر: كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع، ولا للآفل منها أفول، لكن لا يزال للطالع منها آفلا، والآفل طالعا، وكما تكون آلام الكلوم وانتقاض الجراحات، كذلك من قرحت كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم .

فقال الطبي والغراب للجرذ: إن حذرنا وحذرك وكلامك، وإن كان بليغا، كل منها لا يغني عن السلحفاة شيئا، وإنه كما يقال: إنما يختار الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة، كذلك يختار الإخوان عند النوائب. قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب أيها الطبي فتقع بمنظر من القانص: كأنك جريح، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك، وأسعى أنا فأكون قريبا من القانص، مراقبا له، فعله أن يرمي ما معه من الآلة، ويضع السلحفاة، ويقصدك طامعا فيك، راجيا تحصيلك. فإذا دنا منك ففر عنه رويدا: بحيث لا ينقطع طمعه منك، ومكنه من أخذك مرة بعد مرة، حتى يبعد عنا، وانح منه هذا النحو ما استطعت:

فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبال عن السلحفاة، وأنجو بها. ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ، وتبعهما القانص، فاستجره الظبي، حتى أبعدته عن الجرذ والسلحفاة، والجرذ مقبل على قطع الحبال، حتى قطعها، ونجا بالسلحفاة، وعاد القانص مجهوداً لا غباراً فوجد حبالته مقطعة. ففكر في أمره مع الظبي المتظالم، فظن أنه خولط في عقله وفكر في أمر الظبي والغراب الذي كأنه يأكل منه وقرض حبالته فاستوحش من الأرض وقال: هذه أرض جن أو سحرة. فرجع مولياً لا يلتكس شيئاً ولا يلتفت إليه. واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه. فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص ممرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض فالإنسان الذي قد أعطي العقل والفهم. وألهم الخير ولا شر ومنح التميز والمعرفة، أولى وأحرى بالتواصل والتعاقد. فهذا مثل إخوان الصفاء وأتلافهم في الصحبة.

باب البوم والغربان

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم، فاضرب لي مثل العدو الذي لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر تضرعاً وملقاً، قال الفيلسوف: من اغتر بالعدو الذي لم يزل عدواً، أصابه ما أصاب البوم من الغربان. قال الملك وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان في جبل في الجبال شجرة من شجر الدوح، فيها وكر ألف غراب، وعليهن وال من أنفسهن، وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بوم، وعليهن وال منهن. فخرج ملك البوم لبعض غدواته وروحاته، وفي نفسه العداوة لملك الغربان، وفي نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم، فأغار ملك البوم في أصحابه على الغربان في أوكارها، فقتل وسبى منها خلقا كثيرا، وكانت الغارة ليلا، فلما أصبحت الغربان اجتمعت إلى ملكها فقلن له: قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم، وما منا إلا أصبح قتيلا أو جريحا أو مكسور الجناح أو منتوف الريش أو مقطوف الذنب وأشد مما أصابنا ضرا علينا جراءتهن علينا، وعلمهن بمكاننا، وهن عائدات إلينا غير منقطعات عنا: لعلمهن بمكاننا: فإنما نحن لك، ولك الرأي، أيها الملك، فانظر لنا ولنفسك، وكان في الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأي، يسند إليهن في الأمور، ويلقى عليهن أزمة الأحوال. وكان الملك كثيرا ما يشاورهن في الأمور، ويأخذ آراءهن في الحوادث والنوازل. فقال الملك للأول من الخمسة: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال: رأي قد سبقتنا إليه العلماء، وذلك أنهم قالوا: ليس للعدو الحق إلا الهرب منه. قال الملك للثاني: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال: رأي ما رأى هذا من الهرب. قال الملك: لا أرى لكما ذلك رأيا، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا منه ولا ينبغي لنا ذلك ولكن نجمع أمرنا ونستعد لعدونا ونذكي نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ونحترس من الغرة إذا أقبل إلينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالا غير مراجعين فيه، ولا مقصرين عنه وتلقى أطرافنا أطراف العدو ونتحرز بحصوننا وندافع عدونا: بالأناة مرة وبالجلاد أخرى حيث نصيب فرصتنا وبغيثنا، وقد ثبينا عدونا عنا.

ثم قال الملك للثالث: ما رأيك أنت؟ قال: ما أرى ما قالاً رأياً. ولكن نبث العيون ونبعث الجواسيس ونرسل الطلائع بيننا وبين عدونا فنعلم أيريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية؟ فإن رأينا أمره أمر طامع في مال، لم نكره الصلح على خراج نؤديه إليه كل سنة، ندفع به عن أنفسنا ونطمئن في أوطاننا: فغن من أراء الملوك إذا أشتدت شوكة عدوهم، فخافوه على أنفسهم وبلادهم، أن يجعلوا الأموال جنة البلاد والملك والرعية. قال الملك للرابع: فما رأيك في هذا الصلح؟ قال لا أراه رأياً بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدة المعيشة خير من أن نضيع أحسابنا ونخضع للعدو الذي نحن أشرف منه مع أن اليوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضى منا إلا بالشطط. ويقال في الأمثال: قارب عدوك بعض المقاربة: لتتال حاجتك .

ولا تقاربه كل المقاربة: فيتجرى عليك ويضعف جندك وتذل نفسك. ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس: إذا أملتها قليلاً زاد ظلها، وإذا جاوزت بها الحد في إمالتها نقص الظل. وليس عدونا راضياً منا بالدون في المقاربة، فالرأي لنا ولك المحاربة. قال الملك للخامس: ما تقول أنت؟ وماذا ترى: القتال أم الصلح أم الجلاء عن الوطن؟ قال: أما القتال فلا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه وقد يقال: إنه من لا يعرف نفسه وعدوه وقاتل من لا يقوى عليه، حمل نفسه على حتفها مع أن العاقل لا يستصغر عدوا: فإن من استصغر عدوه اغتر به ومن اغتر بعدوه لم يسلم منه. وأنا لليوم شديد الهيبة وإن أضربن عن قتالنا وقد كنت أهابها قبل ذلك، فإن الحازم لا يأمن عدوه على كل حال فإن كان بعيداً لم يأمن سطوته، وإن كان مكتباً لم يأمن من وثبته، وإن كان وحيداً لم يأمن من مكره. وأحزم الأقوام وأكسيهم من كره

القتال لجل النفقة فيه: فإن ما دون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل، والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان. فلا يكون القتال للبوم من رأيك، أيها الملك: فإن من قاتل من لا يقوى عليه فقد غرر بنفسه. فإذا كان الملك محصنا للأسرار، متخيلا للوزراء، مهيبا في أعين الناس، بعيدا من أن يقدر عليه، كان خليقا ألا يسلب صحيح ما أوتى من الخير. وأنت، أيها الملك، كذلك. وقد استشرتني في أمر جوابك مني عنه، في بعضه علانية، وفي بعضه سر وللأسرار منازل: منها ما يدخل فيه الرهط، ومنها ما يستعان فيه بالقوم، ومنها ما يدخل فيه الرجال. ولست أرى لهذا السر على قدر منزلته أن يشارك فيه إلا أربع آذان ولسانان. فنهض الملك من ساعته، وخلا به، فاستشاره، فكان أول ما سألته عنه الملك أنه قال: هل يعلم ابتداء عداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم: كلمة تكلم بها غراب. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن جماعة من الكراكي لم يكن لها ملك، فأجمعت أمرها على أن يملكن عليهن ملك البوم فبينما هي في مجمعها إذ وقع لها غراب، فقالت: لو جاءنا هذا الغراب. لاستشرناه؛ فلم يلبثن دون أن جاءهن الغراب. فاستشرنه، فقال: لو أن الطير بادت من الأقاليم، وفقد الطاوس والبط والنعام والحمار من العالم لما اضطررتن إلى أن تملكن عليكن البوم التي هي أقبح الطير منظرا، وأسوأها خلقا، وأقلها عقلا، وأشدّها غضبا وأبعدها من كل رحمة، مع عماها وما بها من العشا بالنهار، وأشد من ذلك وأقبح أمورها سفهها وسوء أخلاقها، إلا أن ترين أن تملكنها وتكن أنتن تدبرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن، كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها، ثم عملت برأيها، قال الطير: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن أرضاً من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون، وأجدبت، وقل مأوها، وغارت عيونها، وذوى نبتها، ويبس شجرها، فأصاب الفيلة عطش شديد: فشكون ذلك إلى ملكهن، فأرسل الملك رسوله ورواده في طلب الماء، في كل ناحية. فرجع إليه بعض الرسل، فأخبره إني قد وجدت بمكان كذا عينا يقال لها عين القمر، كثيرة الماء. فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته. وكانت العين في أرض للأرانب، فوطئن الأرانب في أحجارهن، فأهلكن منهن كثيراً، فاجتمعت الأرانب إلى ملكها فقلن له: قد علمت ما أصابنا من الفيلة فقال: ليحضرن منكن كل ذي رأي رأيته. فتقدمت أرنب من الأرانب يقال لها فيروز. وكان الملك يعرفها بحسن الرأي والأدب، فقالت: إن رأي الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويرسل معي أمينا، ليرى ويسمع ما أقول، ويرفعه إلى الملك، فقال لها الملك: أنت أمينة، ونرضى بقولك، فانطلقى إلى الفيلة، وبلغني عني ما تريدين. واعلمي أن الرسول برأيه وعقله، ولينه وفضله، يخبر عن عقل المرسل. فعليك باللين والرفق والحلم والتأني: فإن الرسول هو الذي يلين الصدور إذا رفق، ويخشن الصدور إذا خرق. ثم إن الأرنب انطلقت في ليلة قمراء، حتى انتهت إلى الفيلة، وكرهت أن تدنو منهن: مخافة أن يطأنها بأرجلهن، فيقتلنها، وإن كن غير متعمدات. ثم أشرفت على الجبل ونادت ملك الفيلة وقالت له: إن القمر أرسلني إليك، والرسول غير ملوم فيما يبلغ، وإن أغلظ في القول. قال ملك الفيلة: فما الرسالة؟ قالت: يقول لك: إن من عرف فضل قوته على الضعفاء، فاغتر بذلك في شأن الأقوياء، قياساً لهم على الضعفاء، كانت قوته وبالا عليه. وأنت قد عرفت فضل قوتك على الدواب، فغرك ذلك، فعمدت إلى العين التي تسمى باسمي، فشربت منها، وكدرتها. فأرسلني

إليك: فأندرك ألا تعود إلى مثل ذلك. وإنك إن فعلت أغش بصرك،
وأتلف نفسك. وإن كنت في شك من رسالتي، فهلم إلى العين من
ساعتك: فإني موافيك بها. فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب،
فانطلق إلى العين مع فيروز الرسول. فلما نظر إليها، رأى ضوء
القمر فيها. فقالت له فيروز الرسول: خذ بخرطومك من الماء
فاغسل به وجهك، واسجد للقمر. فأدخل الفيل خرطومه في الماء،
فتحرك فخيّل للفيل أن القمر ارتعد. فقال: ما شأن القمر ارتعد؟
أترأه غضب من إدخال الخراطوم في الماء؟ قالت فيروز الأرنب:
نعم. فسجد الفيل للقمر مرة أخرى، وتاب إليه مما صنع، وشرط
ألا يعود إلى مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته. قال الغراب: ومع ما
ذكرت من أمر اليوم إن فيها الخب والمكر والخديعة، وشر الملوك
الخادع، ومن ابتلى بسلان مخادع، وخدمه، أصاب ما أصاب
الأرنب والفرد حين احتكما إلى السنور. قالت الكراكي: وكيف كان
ذلك؟ قال الغراب: كان لي جارا من الصفاردة في أصل شجرة
قريبة من وكري وكان يكثر مواصليتي ثم فقدته فلم أعلم أين غاب
وطالت غيبته عني. فجاءت أرنب إلى مكان الصفرد فسكنته
فكرهت أن أخاصم الأرنب فلبثت فيه زمنا. ثم إن الصفرد غاد بعد
زمان فأتى منزله فوجد فيه الأرنب. فقال لها: هذا المكان لي،
فانتقلي عنه. قالت الأرنب: المسكن لي، وتحت يدي؛ وأنت مدع
له. فإن كان لك حق فاستعد بإثباته علي. قال الصفرد: القاضي منا
قريب: فهلمي بنا إليه. قالت الأرنب: ومن القاضي؟ قال الصفرد:
إن بساحل البحر سنورا متعبدا، يصوم النهار، ويقوم الليل كله؛
ولا يؤذي دابة، ولا يهرق دما، عيشه من الحشيش ومما يقذفه
إليه البحر. فإن أحببت تحاكمنا إليه، ورضينا به. قالت الأرنب:
المسكن لي، وتحت يدي، وأنت مدع له. فإن كان لك حق فاستعد
بإثباته علي.

قال الصفرد: القاضي؟ منا قريب: إن بساحل البحر سنورامعبدا، يصوم النهار، ويقوم الليل كله، ولا يؤذى دابة، ولا يهريق دما، عيشه من الحشيش ومما يقذفه إليه البحر. فإن أحببت تحاكما إليه، ورضينا به. قالت الأرنب: ما أرضاني به إذا كان كما وصفت. فانطلقا إليه فتبعهما لأنظر إلى حكومة الصوام القوام ثم إنهما ذهبا إليه فلما بصر النور بالأرنب والصفرد مقبيلين نحوه، انتصب قائما يصلي، وأظهر الخشوع والتنسك. فعجبا لما رأيا من حاله ودنوا منه هائبين له، وسلمما عليه وسألاه أن يقضي بينهما. فأمرهما أن يقصا عليه القصة ففعلا. فقال لهما: قد بلغني الكبر وثقلت أذناي: فادنوا مني فاسمعاني ما تقولان. فدنوا منه، وأعادا عليه القصة وسألاه الحكم فقال قد فهمت ما قلتما، وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما: فأنا آمركما بتقوى الله وألا تطلبا إلا الحق هو الذي يفلح، وأن قضى عليه وطالب الحق هو الذي يفلح وإن قضى عليه وطالب الباطل مخصوم وإن قضى له. وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه فذو العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقى وعود نفعه عليه غدا، وأن يمقت بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا: فإن منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر، ومنزلة الناس عنده فيما يحب أهم من الخير ويكره من الشر بمنزلة نفسه. ثم إن السنور لم يزل يقص عليهما من جنس هذا وأشباهه، حتى أنسا إليه، وأقبلا عليه، ودنوا منه، ثم وثب عليهما فقتلهما. قال الغراب: ثم إن اليوم تجمع مع ما وصفت لكن من الشؤم سائر العيوب: فلا يكونن تملكك اليوم من رأ يكن. فلما سمع الكراكي ذلك من كلام الغراب أضربن عن تملكك اليوم. زكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا، فقال الغراب: لقد وترتني أعظم الترة،

ولا أعلم أنه سلف مني إليك سوء أوجب هذا. وبعد فاعلم أن
الفأس يقطع به الشجر فيعود ينبت السيف يقطع اللحم ثم يعود
فيندمل واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى مقاطعه. والنصل من
السهم يغيب في اللحم ثم ينزع فيخرج، وأشباه النصل من الكلام
إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج. ولكل حريق مطفئ:
فللنار الماء، وللسم الدواء وللحزن الصبر ونلر الحقد لا تخبو
أبدا. وقد غرستم معاشر الغربان بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة
والبغضاء .

فلما قضى اليوم مقالته، ولى مغضبا، فأخبر ملك اليوم بما جرى
وبكل ما كان منقول الغراب، ثم إن الغراب ندم على ما فرط منه،
وقال: والله لقد خرقت في قلبي الذي جلبت به العداوة والبغضاء
على نفسي وقومي! وليتني لم أخبر الكراكي بهذه الحال! ولا
أعلمتها بهذا الأمر! ولعل أكثر الطير قد رأى أكثر مما رأيت،
وعلم أضعاف ما علمت، فمنعها من الكلام بمثل ما اتقاء ما لم
أتق، والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب، لا سيما إذا كان
الكلام أفظع كلام، يلقي منه سامعه وقائله المكروه مما يورث
الحقد والضغينة، فلا ينبغي لأشباه هذا الكلام، أن تسمى كلاما،
ولكن سهاماً. والعاقل، وإن كان واثقا بقوته وفضله، لا ينبغي أن
يحمل ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالا على ما عنده
من الرأي والقوة، كما أنه وإن كان عنده الترياق لا ينبغي له أن
يشرب السم اتكالا على ما عنده. وصاحب حسن العمل، وإن قصر
به القول في مستقبل الأمر، كان فضله بينا واضحا في العاقبة
والاختار، وصاحب حسن القول، وإن أعجب الناس منه حسن
صفته للأمور لم تحمد عاقبة أمره. وأنا صاحب القول الذي لا
عاقبة له محمودة. أليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر
الجسيم لا أستشير فيه أحدا، ولم أعمل فيه رأيا؟ ومن لم يستشر

النصاء الأولياء، وعمل برأيه من غير تكرار النظر والروية، لم يغتبط بمواقع رأيه. فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا، وما وقعت فيه من الهم! وعاتب الغراب نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب. فهذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم . وأما القتال فقد علمت رأيي فيه، وكراحتي له، ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى: فإنه رب قوم قد احتالوا بأرائهم حتى ظفروا بما أرادوا. ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك، وأخذوا عريضه قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا ان ناسكا اشتى عريضا ضخما ليجعله قربانا، فانطلق به يقوده فبصر به قوم من المكرة، فأتهموا بينهم أن يأخذوه من الناسك. فعرض له أحدهم فقال له: أيها الناسك، ما هذا الكلب الذي معك؟ ثم عرض له الآخر فقال لصاحبه: ما هذا الناسك، لأن الناسك لا يقود كلبا. فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشك أن الذي يقوده كلب، وأن الذي باعه إياه سحر عينه، فأطلقه من يده، فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به. وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرفق والحيلة. وإني أريد من الملك أن ينقرني على رؤوس الأشهاد، وينتف ريشي وذنبي، ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة، ويرتحل الملك هو وجنوده إلى مكان كذا. فأرجو أني أصبر وأطلع على أحوالهم، ومواضع تحصينهم وأبوابهم، فأخادعهم وآتي إليكم لنهجم عليهم، وننا منهم غرضنا إن شاء الله تعالى .

قال الملك: أتطيب نفسك لذلك؟ قال: نعم، وكيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه أعظم الراحة للملك وجنوده؟ ففعل الملك بالغراب ما ذكر، ثم ارتحل عنه فجعل الغراب يئن ويهمس حتى رآته البوم

وسمعتة يئن، فأخبرن ملكهن بذلك، فقصد نحوه ليسأله عن الغربان فلما دنا منه أمر بوما أن يسأله فقال له: من أنت؟ وأين الغربان؟ فقال: أما اسمي ففلان، وأما ما سألتني عنه فإني أحسبك ترى أن حالي حال من لا يعلم الأسرار فقليل لملك اليوم: هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه، فنسأله بأي ذنب صنع به ما صنع؟ فسئل الغراب عن أمره فقال: إن ملكنا استشار جماعتنا فيمكن: وكنت يومئذ بمحضر من الأمر، فقال: أيها الغربان، ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال اليوم: لأنهن أشد بطشا، وأحد قلبا منا ولكن أرى أن نلتمس الصلح، ثم نبذل الفدية في ذلك، فإن قبلت اليوم ذلك منا، وإلا هربنا في البلاد وإذا كان القتال بيننا وبين اليوم كان خيرا لهن وشرا لنا، فالصلح أفضل من الخصومة وأمرتهن بالرجوع عن الحرب، وضربت لهن الأمثال في ذلك، وقلت لهن: إن العدو الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له: ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح لئنه وميله معها حيث مالت فعصينني في ذلك وزعن أنهن يردن القتال وأتهمني في ما قلت، وقلنا إنك قد مالأت اليوم علينا ورددن قولي ونصيحتي وعذبني بهذا العذاب وتركني الملك وجنوده وأرتحل ولا علم لي بهن بعد ذلك: فلما سمع ملك اليوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه: ما تقول في الغراب؟ وما ترى فيه؟ قال: ما أرى إلا المعاجلة له بالقتل: فإن هذا أفضل عدد الغربان، وفي قتله لنا راحة من مكره وفقده على الغربان شديد ويقال: من ظفر بالساعة التي فيها ينجح العمل ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فاته الأمر وهو خليق ألا تعود له الفرصة ثانية ومن وجد عدوه ضعيفا ولم ينجز قتله ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه قال الملك لوزير آخر: ما ترى أنت في هذا الغراب؟ قال: أرى ألا تقتله: فإن

العدو الذليل الذي لا ناصر له أهل لأن يستبقى ويرحم ويصفح عنه ولا سيما المستجير الخائف: فإنه أهل لأن يؤمن .
قال ملك اليوم لوزير آخر من وزائه: ما تقول في الغراب؟ قال:
أرى أن تستبقيه وتحسن إليه: فإنه خليك أن ينصحك والعاقل يرى معادات بعض أعدائه بعضا ظفرا حسنا ويرى اشتغال بعض أعدائه ببعض خلاصا لنفسه منهم ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشیطان حين اختلفا عليه قال الملك له: وكيف كان ذلك؟

قال الوزير: زعموا أن ناسكا أصاب من رجل بقرة حلوبا فانطلق بها يقودها إلى منزله، فعرض له لص أراد سرقتها واتبعه شیطان يريد اختطافه. فقال الشیطان للـص: من أنت؟ قال أنا اللص، أريد أن أسرق البقرة من الناسك إذا نام. فمن أنت؟ قال: أنا الشیطان أريد أختطافه إذا نام وأذهب به فاتھيا على هذا إلى المنزل فدخل الناسك منزله ودخلا خلفه وأدخل البقرة فربطها في زاوية المنزل وتعشى ونام. فأقبل اللص والشیطان يآتمران فيه واختلفا على من يبدأ بشغله أولا فقال الشیطان للـص: إن أنت بدأت بأخذ البقرة فربما استيقظ وصاح، واجتمع الناس: فلا أقدر على أخذه فأنظرني ريثما أخذه، وشأنك وما تريد. فأشفق اللص إن بدأ الشیطان باختطافه فربما استيقظ فلا يقدر على أخذ البقرة، فقال: لا، بل انظرني أنت حتى أخذ البقرة وشأنك زما تريد فلم يزالا في المجادلة هكذا حتى نادى اللص: أيها الناسك انتبه: فهذا الشیطان يريد اختطافك، ونادى الشیطان: أيها الناسك انتبه: فهذا اللص يريد أن يسرق بقرتك فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتهما، وهرب الخبيثان. قال الوزير الأول الذي أشار بقتل الغراب: أظن أن الغراب قد خدعكن ووقع كلامه في نفس الغبي منكن موقعه، فتردن أن تضعن الرأي في غير موضعه فمهلا مهلا أيها الملك

عن هذا الرأي. فلم يلتفت الملك إلى قوله وأمر الغراب أن يحمل إلى منازل البوم، ويكرم ويستوصى به خيرا .

ثم إن الغراب قال للملك يوما وعنده جماعة من البوم وفيهن الوزير الذي أشار بقتله: أيها الملك قد علمت ما جرى علي من الغربان وأنه لا يستريح قلبي إلا بأخذي بثأري منهن، وإني قد نظرت في ذلك فإذا بي لا أقدر على ما رمت: لأنني غراب وقد روى عن العلماء أنهم قالوا: من طابت نفسه بأن يحرقها فقد قرب لله أعظم القربان لا يدعو عند ذلك بدعوة إلا استجيب له فإن رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي وأدعو ربي أن يحولني بوما فأكون أشد عداوة وأقوى بأسا على الغربان لعلني أنتقم منهن! قال الوزير الذي أشار بقتله: ما أشبهك في خير ما تظهر وشر ما تخفي إلا بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقع فيها السم رأيت لو أحرقتنا جسمك بالنار كان جوهرك وطباeck متغيرة! أليست أخلاقك تدور معك حيثما درت، وتصير بعد ذلك إلى أصلك وطويتك؟ كالفأرة التي خيرت في الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ وقيل له: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنه كان ناسكا مستجاب الدعوة فبينما هو ذات يوم جالسا على ساحل البحر إذ مرت به حداة في رجلها درص فأرة فوقع منها عند الناسك، وأدركته لها رحمة، فأخذها ولفها في ورقة، وذهب بها إلى منزله، ثم خاف أن تشق على أهله تربيتها فدعا ربه أن يحولها جارية: فتحولت جارية حسناء فانطلق بها إلى امرأته، فقال لها هذه ابنتي فاصنعي معها صنيعك بولدي. فلما كبرت قال لها الناسك: يا بنية أختاري من أحببت حتى أزوجك به. فقالت، أما إذا خيرتني فإني أختار زوجا يكون أقوى الأشياء. فقال

الناسك لعلك تريدين الشمس! ثم انطلق إلى الشمس فقال: أيها الخلق العظيم إن لي جارية وقد طلبت زوجا يكون أقوى الأشياء، فهل أنت متزوجها؟ فقالت الشمس أنا أدلك على من هو أقوى مني: السحاب الذي يغطيني، ويرد حر شعاعي ويكسف أشعة أنواري. فذهب الناسك إلى السحاب فقال له ما قال للشمس، فقال السحاب: وأنا أدلك على من هو أقوى مني: فاذهب إلى الريح التي تقبل بي وتدبر وتذهب بي شرقا وغربا فجاء الناسك إلى الريح فقال لها كقوله للسحاب فقالت: وأنا أدلك على من هو أقوى مني وهو الجبل الذي لا أقدر على تحريكه فمضى إلى الجبل وقال له القول المذكور فأجابه الجبل وقال له: أنا أدلك على من هو أقوى مني: الجرد الذي لا أستطيع الامتناع منه إذا ثقبني واتخذني مسكنا. فانطلق الناسك إلى الجرد فقال له: هل أنت متزوج هذه الجارية؟ فقال وكيف أتزوجها وجحري ضيق؟ إنما يتزوج الجرد الفأرة فدعا الناسك ربه أن يحولها فأرة كما كانت وذلك برضى الجارية، فأعادها الله إلى عنصرها الأول فانطلقت مع الجرد فهذا مثلك أيها المخادع فلم يلتفت ملك اليوم إلى ذلك القول، ورفق بالغراب ولم يزد له إلا إكراما حتى إذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع على ما أراد أن يطلع عليه راغ روغة. فأتى أصحابه بما رأى وسمع فقال للملك: إني قد فرغت مما كنت أريد ولم يبق إلا أن تسمع وتطيع، فقال له: أنا والجند تحت أمرك، فاحتكم كيف شئت .

قال الغراب: إن اليوم بمكان كذا في جبل كثير الحطب وفي ذلك الموضع قطع من الغنم مع رجل راع، ونحن مصيبون هناك نارا، ونلقينا في أنقاب اليوم ونقذف عليها من يابس الحطب ونتراوح عليها ضربا بأجنحتنا حتى تضرم النار في الحطب: فمن خرج منهم احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه ففعل الغرابان

ذلك: فأهلكن اليوم قاطبة ورجعن إلى منازلهن سالمات آمانات .

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة اليوم ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟ فقال الغراب: إنما ما قتلته أيها الملك كذلك لكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذي يخاف من عدم تحمله الجائحة على نفسه وقومه لم يجزع من شدة الصبر عليه، لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة زكثير الخير فلم يجد لذلك ألماً، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته فيغتبط بخاتمة أمره وعاقبة صبره. فقال الملك: أخبرني عن عقول اليوم: فقال الغراب: لم أجد فيهن عاقلاً إلا الذي كان يحثهن على قتلي، وكان حرضهن على ذلك مراراً فكن أضعف شيء رأياً! فلم ينظرن في رأيه ويذكرن أنني قد كنت ذا منزلة في الغربان، وأناي أعد من ذوي الرأي ولم يتخوفن مكري وحيلتي ولا قبلن من الناصح الشفيق ولا أخفين دوني أسرارهن وقد قال العلماء: ينبغي للملك أن يحصن أموره من أهل النميمة ولا يطلع أحداً منهم على مواضع سره فقال الملك: ما أهلك اليوم في نفسي إلا الغي، وضعف رأي الملك وموافقته وزراء السوء فقال الغراب: صدقت أيها الملك، إنه قلما ظفر أحد بغنى ولم يطع، وقل من أكثر من الطعام إلا مرض. وقل من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك وكان يقال: لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخب في كثرة الصديق، ولا السي الأدب في الشرف، ولا الشحيح في البر، ولا الحريص في قلة الذنوب ولا الملك المحتال، المتهاون بالأمور، الضعيف الوزراء في ثبات ملكه، وصلاح رعيته قال الملك: لقد احتملت مشقة شديدة في تصنعك لليوم، وتضرعك لهن قال الغراب: إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها، ونحى عن نفسه الأنفة والحمية،

ووطنها على الصبر حمد غب رأيها، كما صبر الأسود على حمل
ملك الضفادع على ظهره، وشبع بذلك وعاش قال الملك: وكيف
كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن أسود من الحيات كبر، وضعف
بصره وذهبت قوته: فلم يستطع صيدا ولم يقدر على طعام وأنه
انساب يتلمس شيئا يعيش به، حتى انتهى إلى عين كثيرة
الضفادع، قد كان يأتيها قبل ذلك، فيصيب من ضفادعها رزقه
فرمى نفسه قريبا منهن مظهرا للكآبة والحزن فقال له ضفدع: ما
لي أراك أيها الأسود كئيبا حزينا؟ قال: ومن أخرى بطول الحزن
مني! وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع
فابتليت ببلاء وحرمت على الضفادع من أجله، حتى إنني إذا
التقيت ببعضها لا أقدر على إمساكه. فانطلق الضفدع إلى ملك
الضفادع، فبشره بما سمع من الأسود فقال له: كيف كان أمرك؟
قال سعيت منذ أيام في طلب ضفدع وذلك عند المساء فاضطررت
إلى بيت ناسك، ودخلت في أثره في ظلمة وفي البيت ابن الناسك،
فأصبت إصبعة، فظننت أنها الضفدع، فلدغته فمات فخرجت
هاربا، فتبعني الناسك في أثري، ودعا علي ولعني وقال: كما
قتلت ابني البريء ظلما وتعديا، أدعو عليك أن تذلل وتصير مركبا
لملك الضفادع، فلا تستطيع أخذها، ولا أكل شيء منها، إلا ما
يتصدق به عليك ملكها فأتيت إليك لتركبني مقرا بذلك راضيا به
فرغب ملك الضفادع بركوب الأسود، وظن أن ذلك فخرا له
وشرف ورفعة فركب واستطاب له ذلك .

فقال له الأسود: قد علمت أيها الملك أنني محروم فاجعل لي رزقا
أعيش به فقال ملك الضفادع: لعمرى لا بد من رزق يقوم بك، إذا
كنت مركبي فأمر له بضفدعين يؤخذان في كل يوم ويدفعان إليه
فعاش بذلك، ولم يضره خضوعه للعدو الذليل، بل انتفع بذلك

وصار له رزقا ومعيشة وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه،
التماسا لهذا النفع العظيم الذي اجتمع لنا فيه الأمن الظفر، وهلاك
العدو والراحة منه ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشد
استئصالا للعدو من صرعة المكابرة: فإن النار لا تزيد بحدتها
وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها
والماء ببرده ولينه يستأصل ما تحت الأرض منها ويقال أربعة
أشياء لا يستقل قليلها: النار والمرض والعدو والدين. قال
الغراب: وكل ذلك من رأى الملك وأدبه وسعادة جده وإنه كان
يقال: إذا طلب اثنان أمرا ظفر به منها أفضلهما مروءة فإن اعتدلا
في المروءة فأشدهما عزما. فإن استويا في العزم فأسدهما جدا
وكان يقال: من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع الذي لا
تبطره السراء ولا تدهشه الضراء كان هو داعي الحتف إلى
نفسه، ولا سيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال،
ومواضع الشدة واللين، والغضب والرضا والمعالجة والأناة الناظر
في أمر يومه وغده، وعواقب أعماله قال الملك للغراب: بل برأيك
وعقلك ونصيحتك ويمن طالعك كان ذلك، فإن رأى الرجل الواحد،
العاقل الحازم أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة، من ذوي
البأس والنجدة، والعدد والعدة. وإن من عجيب أمرك عندي طول
لبثك بين ظهرائي اليوم تسمع الكلام الغليظ، ثم لم تسقط بينهن
بكلمة! قال الغراب: لم أزل متمسكا بأدبك أيها الملك: أصحاب
البعيد والقريب، بالرفق واللين، والمبالغة والمواتاة. قال الملك:
أصبحت وقد وجدتكم صاحب العمل، ووجدت غيرك من الوزراء
أصحاب أقاويل: ليس لها عاقبة حميدة فقد من الله علينا بكمنة
عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام والشراب، ولا النوم ولا
القرار وكان يقال: لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ،
ولا الرجل الشره الذي قد أطعمه سلطانه في مال وعمل في يده،

حتى ينجزه له، ولا الرجل الذي قد ألح عليه عدوه، وهو يخافه صباحا ومساء حتى يستريح منه قلبه ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه ومن أمن عدوه ثلج صدره .

قال الغراب: أسأل الله الذي أهلك عدوك أن يمتعك بسلطانك، وأن يجعل في ذلك صلاح رعيته، ويشركهم في قرة العين بملكك! فإن الملك إذا لم يكن في ملكه قرة عيون رعيته، فمثله مثل زنمة العنز التي يمصها، وهو يحسبها حلما الضرع، فلا يصادف فيها خيرا. قال الملك: أيها الوزير الصالح، كيف كانت سيرة اليوم وملكها في حروبها، وفيما كانت فيه من أمورها؟ قال الغراب: كانت سيرته سيرة بطر، وأشر وخيلاء وعجز وفخر مع ما فيه من الصفات الذميمة وكل أصحابه ووزرائه شبيه به، إلا الوزير الذي كان يشير عليه بقتلي: فإنه كان حكيما أريبا، فيلسوفا حازما عالما، قلما يرى مثله في علو الهمة، وكمال العقل، وجودة الرأي قال الملك: وأي خصلة رأيت منه كانت أدل على عقله؟ قال خلتان: إحداهما رأيه في قتلي والأخرى أنه لم يكتم صاحبه نصيحته وإن استقلها ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة ولكنه كلام رفق ولين حتى إنه ربما أخبره ببعض عيوبه ولا يصرح بحقيقة الحال بل يضرب له الأمثال ويدثه بعيب غيره فيعرف عيبه فلا يجد ملكه إلى الغضب عليه سبيلا وكان مما سمعته يقول لملكه: إنه لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره فإنه أمر جسيم لا يظفر به من الناس إلا قليل ولا يدرك إلا بالحزم فإن الملك عزيز فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه، فإنه قد قيل إنه في قلة بقاء بمنزلة قلة بقاء الظل عن ورق النيلوفر وهو في خفة زواله، وسرعة إقباله وإدباره كالريح وفي قلة ثباته كاللبيب مع اللئام، وفي سرعة اضمحلاله كحباب الماء من وقع المطر. فهذا

مثل أهل العداوة الذين لا ينبغي أن يغتر بهم، وإن هم أظهروا
توددا وتضرعا.

باب الناسك وابن عرس

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب
لي مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في
العواقب. قال الفيلسوف: إنه من لم يكن في أمره متشبثاً لم يزل
نادماً ويصير أمره إلى ما صار إليه الناسك من قتل ابن عرس وقد
كان له ودوداً. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا
أن ناسكاً من الناسك بأرض جرجان وكانت له امرأة جميلة، فمكثا
زمناً لم يرزقا ولداً ثم حملت منه بعد الإياس فسرت المرأة وسر
الناسك بذلك فحمد الله تعالى وسأله أن يكون الحمل ذكراً وقال
لزوجته: أبشري فإني أرجو أن يكون غلاماً لنا فيه منافع، وقرة
عين، أختار له أحسن الأسماء وأحضر له سائر الأدباء. فقالت
المرأة: ما يملك أيها الرجل على أن تتكلم بما لا تدري أيكون أم
لا؟ ومن فعل ذلك أصابه ما أصاب الناسك الذي أراق على رأسه
السمن والعسل. قال لها: وكيف ذلك؟ قالت: زعموا أن ناسكاً كان
يجري عليه من بيت رجل تاجر، في كل يوم رزق من السمن
والعسل وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويجعله في
جرة، فيعلقها في وتد في ناحية البيت حتى أمتلأت فبينما الناسك
ذات يوم مستلق على ظهره والعكاز في يده والجرة معلقة على
رأسه، تفكر في غلاء السمن والعسل، فقال: سأبيع ما في هذه
الجرة بدينار وأشتري به عشرة أعنز، فيحبطن ويلدن في كل
خمسة أشهر بطناً، ولا تلبث قليلاً حتى تصير غنماً كثيرة إذا ولت
أولادها، ثم حرر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من
أربعمائة عنز، فقال: أنا أشتري بها مائة من البقر، وأشتري

أرضاً وبذراً، وأستأجر أكرة وأزرع على الثيران، وأنتفع بألبان
الإناث ونتاجها فلا يأتي على خمس سنين ألا وقد أصبت من
الزرع مالا كثيراً، فأبني بيتاً فاخراً وأشتري إماء وعبيد، وأتزوج
امراً جميلة ذات حسن، ثم تأتي بسلام سري نجيب، فأختار له
أحسن الأسماء، فإذا ترعرع أدبته وأحسن تربيته وأشد عليه
في ذلك، فإن يقبل مني، وإلا ضربته بهذه العكازة وأشار إلى
الجرة فكسرها، فسأل ما كان فيها على وجهه وإنما ضربت لك
هذا المثل لكي لا تعجل بذكر ما لا ينبغي ذكره، وما لا تدري يصح
أم لا يصح فاتعظ الناسك بما حكى زوجته. ثم إن المرأة ولدت
غلاماً جميلاً ففرح به أبوه وبعد أيام حان لها أن تتطهر. فقالت
المرأة للناسك: اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام فأغتسل
وأعود ثم إنها انطلقت إلى الحمام، وخلفت زوجها والغلام فلم
يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه ولم يجد من يخلفه عند ابنه
غير ابن عرس داجن عنده كان قد رباه صغيراً فهو عنده عدل
ولده فتركه الناسك عند الصبي وأغلق عليهما البيت وذهب مع
الرسول. فخرج من بعض أحجار البيت حية سوداء فدنّت من
الغلام فضربها ابن عرس ثم وثب عليها فقتلها ثم قطعها وا
متلأفمه من دمها... ثم جاء الناسك وفتح الباب فالتقاه ابن عرس
كالمبشر له بما صنع من قتل الحية. فلما رآه ملوثاً بالدم وهو
مذعور طار عقله وظن أنه قد خنق ولده ولم يتثبت في أمره ولم
يتو فيه حتى يعلم حقيقة الحال ويعمل بغير ما يظن من ذلك ولكن
عجل ابن عرس وضربه بعكازه كانت في يده على أم رأسه فمات.
ودخل الناسك فرأى الغلام سليماً حياً وعنده أسود مقطع. فلما
عرف القصة وتبين له سوء فعله في العجلة لطم على رأسه.
وقال: ليني لم أرزق هذا الولد ولم أغدر هذا الغدر ودخلت امرأته
فوجدته على تلك الحال. فقالت له: ماشأنك فأخبرها بالخبر من

حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له. فقالت: هذه ثمرة العجلة
فهذا مثل من لا يتثبت في أمره بل يفعل أغراضه بالسرعة
والعجلة.

فهذا مثل من عمل عملاً بغير تثبت ولا روية في أمره.

باب القرد والغيلم

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل ، اضرب
لي مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضعها قال
الفيلسوف: إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها ومن ظفر
بحاجة ثم لم يحسن القيام بها أصابه ما أصاب الغيلم. قال الملك:
وكيف ذلك؟ قال بديبا: زعموا أن قرداً يقال له ماهر كان ملك
القردة وكان قد كبر وهرم فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة
فتغلب عليه، وأخذ مكانه فخرج هارباً على وجهه حتى انتهى إلى
الساحل فوجد شجرة من شجر التين فارتقى إليها وجعلها مقامه
فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، إذا سقطت من يده تينة في
الماء فسمع لها صوتاً وإيقاعاً فجعل يأكل ويرمي في الماء،
فأطربه ذلك: فأكثر من طرح التين في الماء وثم غيلم كلما وقعت
تينة أكلها. فما كثر ذلك ظن أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله فرغب
في مصادقته، وأنس إليه وكلمه، وألف كل واحد منهما صاحبه.
وطالت غيبة الغيلم عن زوجته: فجزعت عليه وشكت ذلك إلى
جارية لها وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء
فاغتاله. فقالت لها: إن زوجك بالساحل قد ألف قرد وألفه القرد :

فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذي قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم
عندك حتى تحتالي لهلاك القرد. قالت وكيف أصنع؟ قالت لها
جارتها: إذا وصل إليك فتمارضي، فإذا سألك عن حالك فقولني: إن
الحكماء وصفوا لي قلب قرد. ثم إن الغيلم انطلق بعد مدة إلى
منزله فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة فقال لها الغيلم: مالي
أراك هكذا، فأجبتة جارتها، وقالت: إن زوجتك مريضة مسكنة.
وقد وصف لها الأطباء قلب قرد، وليس لها دواء سواه قال الغيلم:
هذا أمر عسير من أين لنا قلب قرد، ونحن في الماء؟ لكن سأحتال
لصديقي ثم انطلق إلى ساحل البحر: فقال له القرد يا أخي، ما
حبسك عني؟ قال الغيلم: ما حبسني إلا حيائي: فلم أعرف كيف
أجازيك على إحسانك إلي؟ وأريد أن تتم إحسانك إلي بزيارتك أي
في منزلي فإن ساكن في جزيرة طيبة الفاكهة. فركب ظهر الغيلم،
فسبح به حتى إذا سبح به عرض له قبح ما أضمر في نفسه من
الغدر، فنكس رأسه، فقال له القرد: مالي أراك مهتماً؟ قال الغيلم:
إنما همي لأنني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض وذلك بمنعي من
كثير مما أريد أن أبلغه من حرصك على كرامتك وملاطفتك. قال
القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مؤونة
التكليف. قال الغيلم: أجل ومضى بالقرد ساعة، ثم توقف به ثانية:
فساء ظن القرد وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا
لأمر ولست آمن أن يكون قلبه قد تغير لي وحال عن مودتي،
فأراد بي سوءاً: فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلباً من القلب وقد
يقال: ينبغي للعاقل ألا يغفل عن التماس ما نفس أهله وولده
وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة وعند القيام
والقعود، وعلى كل حال فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب
وقد قالت العلماء إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ
بالحزم في الحفظ منه وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته فإن كان ما

يظن حقاً ظفر بالسلامة، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم، ولم يضره ذلك ثم قال للغيلم: ما الذي يحبسك؟ ومالي أراك مهتماً، كأنك تحدث نفسك مرة أخرى؟ قال: يهمني أنك تأتي منزلي فلا تجد أمري كما أحب: لأن زوجتي مريضة قال القرد: لا تهتم فإن الهم لا يغني عنك شيئاً ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية: فإنه يقال ليبذل ذو المال ماله في أربعة مواضع: في الصدقة وفي الحاجة وعلى البنين وعلى الأزواج. قال الغيلم: صدقت. وقد قال الأطباء إنه لا دواء لها إلا قلب قرد فقال القرد وأسفاه لقد أدركني الحرص والشر على كبر سني: حتى وقعت في شر ورطة ولقد صدق الذي قال: يعيش القانع الراضي مستريحاً مطمئناً وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعب ونصب. وأناي قد احتجت الآن إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه. ثم قال الغيلم: وما منعك أن تعلمني عند منزلي حتى كنت أحمل قلبي معي؟ فهذه سنة فينا معاشر القردة إذا خرج أحد لزيارة صديق خلف قلبه عند أهله أوفي موضعه، للنظر إذا نظرنا إلى حرم المزور وليس قلوبنا معنا قال الغيلم: وأين قلبك الآن؟ قال: خلفته في الشجرة فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة حتى آتيك به ففرح الغيلم بذلك وقال: لقد وافقتني صاحبي بدون أن أغدر به. ثم رجع بالقرد إلى مكانه فلما أبطأ على الغيلم، ناداه: يا خليلي احمل قلبك وانزل فقد حبستني فقال القرد: هيهات أتظن أنني كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذن قال الغيلم: وكيف ذلك؟ قال القرد: زعموا أنه كان أسد في أجمة، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه، فأصاب الأسد جرب، وضعف شديد فلم يستطع الصيد فقال له ابن آوى: ما بالك يا سيد السباع قد تغيرت أحوالك؟ قال: هذا الجرب الذي قد أجهدني وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه قال ابن آوى: ما أيسر هذا

وقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصار يحمل عليه ثيابه، وأنا آتيك به ثم دلف إلى الحمار فأتاه وسلم عليه فقال له: مالي أراك مهزولاً؟ قال ما يطعمني صاحبي شيئاً فقال له: وكيف ترضى المقام معه على هذا؟ قال: فما لي حيلة في الهرب منه، لست أتوجه إلى جهة إلا جهة أضربي إنسان فكذني وأجاعني قال ابن آوى: فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس، لا يمر به إنسان، خصيب المرعى فيه قطع من الحمر لم تر عين مثلها حسناً وسمناً وقال الحمار: وما يحبسنا عنها؟ فانطلق بنا إليها، فانطلق به ابن آوى نحو الأسد، وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد، فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه وأراد أن يثبت عليه، فلم يستطع لضعفه، وتخلص الحمار منه فأفلت هلعاً على وجهه فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار، قال له: أعجزت يا سيد السباع إلى هذه الغاية؟ فقال له: إن جننتي به مرة أخرى، فلن ينجو مني أبداً فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له: ما الذي جرى عليك؟ إن أحد الحمر رآك غريباً، فخرج يتلقاك مرحباً بك، ولو ثبت له لآنسك، ومضى بك إلى أصحابه فلما سمع الحمار كلام ابن آوى، ولم يكن رأى أسداً قط، صدقه وأخذ طريقه إلى الأسد وأعلمه بمكانه وقال له: استعد له فقد خدعته لك: فلا يدركك الضعف في هذه النوبة إن أفلت فلن يعود معي أبداً فجأش جأش الأسد لتحريض ابن آوى له، وخرج إلى موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوبثة افترسه بها. ثم قال: قد ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور: فاحتفظ به حتى أعود فأكل قلبه وأذنيه، وأترك ما سوى ذلك قوتاً لك فلما ذهب الأسد ليغتسل، عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه، رجاء أن يتطير الأسد منه، فلا يأكل منه شيئاً، فقال لابن آوى: أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى: ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به، وأذنان يسمع بهما، لم

يرجع إليك بعد ما أفلت ونجا من الهلكة: وأما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنني لست كذلك الحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان، ولكنك احتلت عليّ وخدعتني فخدعتك بمثل خديعتك، واستدركت فارط أمري. وقد قيل: إن الذي يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم. قال الغيلم: صدقت، إلا أن الرجل الصالح يعترف بذنوبه، وإذا أذنب ذنباً لم يستحي أن يؤدّب: لصدقه في قوله وفعله، وإن وقع في ورطة أمكنه التخلص منها بحيلته وعقله: كالرجل الذي يعثر على الأرض، ثم ينهض عليها معتمداً فهذا مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

باب الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثل الذي يدع صنعه الذي يليق به ويشاكله، ويطلب غيره فلا يدركه: فيبقى حيران متردداً. قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد. فنزل به ضيف ذات يوم، فدعا الناسك لضيفه بتمر: ليطرفه به. فأكلا منه جميعاً. ثم قال الضيف: ما أحلى هذا التمر وأطيبه! فليس هو في بلادي التي أسكنها، وليته كان فيها! ثم قال: أرى أن تساعدني على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا: فإني لست عارفاً بثمار أرضكم، هذه ولا بمواضعها. فقال له الناسك: ليس لك في ذلك راحة: فإن ذلك يثقل عليك. ولعل ذلك لا يوافق أرضكم، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلى التمر مع وخامته وقلة موافقته للجسد؟ ثم قال له الناسك: إنه لا يعد حكيماً من طلب ما لا يجد. وإنك سعيد الجد إذا قنعت بالذي تجد، وزهدت فيها لا تجد. وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية. فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه؛ وعالج في ذلك نفسه أياماً. فقال الناسك

لضيفه: ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك، وتكلف من كلام
العبرانية، في مثل ما وقع فيه الغراب! قال الضيف: وكيف كان
ذلك؟

قال الناسك: زعموا أن غرابا رأى حجلة تدرج وتمشي، فأعجبته
مشيتها، وطمع أن يتعلمها. فراض على ذلك نفسه، فلم يقدر على
إحكامها، وأيس منها، وأراد أن يعود إلى مشيته التي كان عليها:
فإذا هو قد اختلط وتخلع في مشيته، وصار أقبح الطير مشيا.
وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذي
طبع عليه، وأقبلت على لسان العبرانية، وهو لا يشاكلك،
وأخاف ألا تدركه، وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم
لسانا: فإنه قد قيل: إنه يعد جاهلا من تكلف من الأمور ما لا
يشاكله، وليس من عمله ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل.

باب إيلاذ وبلاذ وايراخت

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب
لي مثلا في الأشياء التي يجب على الملك أن يلزم بها نفسه،
ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه، ويكون ذلك رأس أمره وملاكه:
أبالحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود؟ قال بديبا: إن أحق ما
يحفظ به الملك ملكه الحلم، وبه تثبت السلطنة، والحلم رأس
الأمر وملاكها، وأجود ما كان في الملوك: كالذي زعموا من أنه
كان ملك يدعى بلاذ، وكان له وزير يدعى إيلاذ. وكان متعبدا
ناسكا. فنام الملك ذات ليلة، فرأى في منامه ثمانية أحلام أفرعته،
فاستيقظ مرعوبا. فدعا البراهمة، وهم النساك ليعبروا رؤياه. فلما

حضرُوا بين يديه قص عليهم ما رأى. فقالوا بأجمعهم: لقد رأى
الملك عجباً فإن أمهلتنا سبعة أيام جنّاه بتأويله. قال الملك: قد
أمهلتكم فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا في منزل أحدهم وأتمروا
بينهم. وقالوا: قد وجدتم علماً واسعاً تدركون به ثأركم و تنقمون
به من عدوكم، وقد علمتم أنه قتل منا بالأمس اثني عشر ألفاً.
وها هو قد أطلعنا على سره وسألناه تفسير رؤياه: فهل نغلظ له
القول ونخوفه حتى يحمّله الفرق والجزع على أن يفعل الذي نريد
ونأمر. فنقول: ادفع إلينا أحبائك ومن يكرم عليك حتى نقتلهم:
فإن قد نظرنا في كتابنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك وما
وقعت فيه من هذا للشر إلا بقتل من نسمي لك فإن قال الملك: وما
تريدون أن تقتلوا؟ سموهم لي. قلنا نريد الملكة أيراخت أم جوير
المحمودة أكرم نسائك عليك. ونريد جوير أحب بنيك إليك
وأفضلهم عندك. ونريد ابن أخيك الكريم، وإيلاذ خليلك وصاحب
أمرك. ونريد كالا الكاتب صاحب سرّك وسيفك الذي لا يوجد مثله
والفيل الأبيض الذي لا تلحقه الخيل والفرس الذي هو مركبك في
القتال. ونريد الفيلين الآخرين العظيمين الذين يكونان مع الفيل
الذكر. ونريد البختي السريع القوي. ونريد كباريون الحكيم
الفاضل العالم بالأمور لننتقم منه بما فعل بنا. ثم نقول: إنما ينبغي
لك أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك، ثم تجعل دماءهم
في حوض تملؤه، ثم تقعد فيه. فإذا خرجت من الحوض اجتمعنا
نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربعة نجول حولك فنرقبك
وننقل عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالماء والدهن الطيب. ثم
تقوم إلى منزلك البهي فيدفع الله بذلك البلاء الذي نتخوفه عليك.
فإن صبرت، أيها الملك، وطابت نفسك عن أحبائك الذين ذكرنا
لك، وجعلتهم فدائك، تخلصت من البلاء، واستقام لك ملكك
وسلطانك، واستخلفت من بعدهم من أحببت. وإن أنت لم تفعل

تخوفنا عليك أن يغضب ملكك أو تهلك. فإن هو أطاعنا فيما نأمره
قتلناه أي قتلة شئنا. فلما أجمعوا على ما أتمروا به رجعوا إليه
في اليوم السابع. وقالوا له: أيها الملك، إنا نظرنا في كتبنا في
تفسير ما رأيت، وفحصنا عن الرأي فيما بيننا. فلتكن لك أيها
الملك الطاهر الصالح الكرامة. ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلا
أن تخلص بنا. فأخرج الملك من كان عنده وخلا بهم. فحدثوا بالذي
ائتمروا به. فقال لهم: الموت خير لي من الحياة إن أنا قتلت
هؤلاء الذين هم عديل نفسي. وأنا ميت لا محالة، والحياة قصيرة،
ولست كل الدهر ملكا، وإن الموت عندي وفراق الأحباء سواء.
قال له البراهمة: إن أنت لم تغضب أخبرناك. فأذن لهم .

فقالوا: أيها الملك إنك لم تقل صوابا حين تجعل نفس غيرك أعز
عندك من نفسك. فاحتفظ بنفسك وملكك. واعمل هذا الذي لك فيه
الرجاء العظيم على ثقة ويقين. وقر عينا بملكك في وجوه أهل
مملكته الذين شرفت وكرمت بهم. ولا تدع الأمر العظيم وتأخذ
بالضعيف فتهلك نفسك إثارا لمن تحب. واعلم أيها الملك أن
الإنسان إنما يحب الحياة محبة لنفسه. وأنه لا يحب من أحب من
الأحباء إلا ليتمتع بهم في حياته. وإنما قوام نفسك بعد الله تعالى
بملكك. وإنك لم تنل ملكك إلا بالمشقة والعناء الكثير في الشهور
والسنين. وليس ينبغي أن ترفضه ويهون عليك. فاستمع كلامنا.
فانظر لنفسك مناها، ودع ما سواها: فإنه لا خطر له. فلما رأى
الملك أن البراهمة قد أغلظوا له في القول واجترعوا عليه في
الكلام اشتد غمه وحزنه. وقام من بين ظهرانيهم ودخل إلى
حجرته فخر على وجهه يبكي ويتقلب كما تتقلب السمكة إذا
خرجت من الماء، وجعل يقول في نفسه: ما أدري أي الأمرين
أعظم في نفسي؟ المملكة أم قتل أحبائي؟ ولن أنال الفرح ما

عشت. وليس ملكي بباقي إلى الأبد. ولست بالمصيب سؤلي في ملكي. وإني لزاهد في الحياة إذا لم أرى إيراخت. وكيف أقدر على القيام بملكي إذا هلك وزيرني إيلاذ؟ وكيف أضبط أمري إذا هلك فيلي الأبيض وفرسي الجواد؟ وكيف أدعى ملكا وقد قتلت من أشار البراهمة بقتله؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم؟ ثم إن الحديث فشا في الأرض بحزن الملك وهمه. فلما رأى إيلاذ ما نال الملك من الهم والحزن فكر بحكمته ونظر وقال: ما ينبغي لي أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الأمر الذي قد ناله من غير أن يدعوني. ثم انطلق إلى إيراخت فقال: إني منذ خدمت الملك إلى الآن لم يعمل عملا إلا بمشورتي ورأيي. وأراه يكتم عني أمرا لا أعلم ما هو. ولا أراه يظهر منه شيئا. وإني رأيته خاليا مع الجماعة البرهميين منذ ليال. وقد احتجب عنا فيها. وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على شيء من أسرارهم. فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره ويدخل عليه منه سوء. فقومي وادخلي عليه فأسأله عن أمره وشأنه. واخبريني بما هو عليه وأعلميني: فإني لست أقدر على الدخول عليه. فلعل البرهميين قد زينوا له أمرا أو حملوه على خطة قبيحة. وقد علمت أن من خلق الملك أنه إذا غضب لا يسأل أحدا. وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها. فقالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه بهذه الحال. فقال لها إيلاذ: لا تحملي عليه الحقد في مثل هذا. ولا يخطرن ذلك على بالك فليس يقدر على الدخول عليه أحد سواك .

وقد سمعته كثيرا يقول: ما أشد غمي ودخلت علي إيراخت إلا سرى عني، فقومي إليه واصفحي عنه. وكلميه بما تعلمين أنه تطيب به نفسه ويذهب الذي يجده. وأعلميني بما يكون جوابه: فإنه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة. فانطلقت إيراخت فدخلت على الملك فجلست عند رأسه. فقالت: ما الذي بك أيها الملك

المحمود؟ وما الذي سمعت من البراهمة؟ فإني أراك محزوناً.
فأعلمني ما بك، فقد ينبغي لنا أن نحزن معك ونواسيك بأنفسنا.
فقال الملك: أيتها السيدة لا تسأليني عن أمري فتزيديني غماً
وحزناً: فإنه أمر لا ينبغي أن تسأليني عنه. قالت: أو قد نزلت
عندك منزلة من يستحق هذا؟ إنما أحمد الناس عقلاً من إذا نزلت
به النازلة كان لنفسه أشد ضبطاً، وأكثرهم استماعاً من أهل
النصح حتى ينجو من تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث
والمشاورة. فعظيم الذنب لا يقنط من الرحمة. ولا تدخلن عليك
شيئاً من الهم والحزن. فإنهما لا يردان شيئاً مقضياً. إلا أنهما
ينحلان الجسم ويشفيان العدو. قال لها الملك: لا يسأليني عن
شيء فقد شققت علي. والذي تسأليني عنه لا خير فيه: لأن
عاقبته هلاكي وهلاكك وهلاك كثير من أهل مملكتي ومن هو عدل
نفسي. وذاك أن البراهمة زعموا أنه لا بد من قتلك وقتل كثير من
أهل مودتي. ولا خير في العيش بعدكم. وهل أحد يسمع بهذا إلا
اعتراه الحزن؟ .

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت. ومنعها عقلها أن تظهر للملك
جزعاً. فقالت: أيها الملك لا تجزع فنحن لك الفداء. ولك في سواي
ومثلي من الجواري ما تقر به عينك. ولكني أطلب منك، أيها
الملك، حاجة يحملني على طلبها حبي لك وإيثاري إياك. وهي
نصيحتي لك. قال الملك: وما هي؟ قالت: أطلب منك أن لا تثق
بعدها بأحد من البراهمة. ولا تشاورهم في أمر حتى تثبت في
أمرك. ثم تشاور فيه ثقاتك مراراً: فإن القتل أمر عظيم، ولست
تقدر على أن تحيي من قتلت. وقد قيل في الحديث: إذا لقيت
جوهرًا لا خير فيه فلا تلقيه من يدك حتى تريه من يعرفه. وأنت
أيها الملك لا تعرف أعدائك. واعلم أن البراهمة لا يحبونك .

وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفا. ولا تظن أن هؤلاء ليسو من أولئك. ولعمري ما كنت جديرا أن تخبرهم برؤياك، ولا أن تطلعهم عليها. وإنما قالوا لك ما قالوا لأجل الحقد الذي بينك وبينهم: لعلهم يهلكونك ويهلكون أعباءك ووزيرك: فيبلغوا قصدهم منك. فأظنك لو قبلت منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بك وغلبوك على ملكك، فيعود الملك إليهم كما كان. فانطلق إلى كباريون الحكيم، فهو عالم فطن فاخبره عما رأيت في رؤياك واسأله عن وجهها وتأويلها. فلما سمع الملك ذلك سرى عنه وما كان يجده من الغم. فأمر بفرسه فأسرج فركبه ثم انطلق إلى كباريون الحكيم. فلما انتهى إليه نزل عن فرسه وسجد له، وقام مطأطئا الرأس بين يديه. فقال له الحكيم: ما بالك أيها الملك؟ وما لي أراك متغير اللون؟ فقال له الملك إني رأيت في المنام ثمانية أحلام فقصصتها على البراهمة. وأنا خائف أن يصيبني من ذلك عظيم أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياي. وأخشى أن يغضب مني ملكي أو أن أغلب عليه. فقال له الحكيم: إن شئت فاقصص رؤياك علي. فلما قص عليه الملك رؤياه. قال: لا يحزنك أيها الملك هذا الأمر ولا تخف منه: أما السمكتان الحمراء واللتان رأيتهما قائمتين على أذناهما فإنه يأتيك رسول من ملك نهاوند بعلبة فيها عقدان من الدر والياقوت الأحمر، قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهب فيقوم بين يديك. وأما الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك: فإنه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس على الأرض مثلهما فيقومان بين يديك. وأما الحية التي رأيتها تدب على رجلك اليسرى: فإنه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله. وأما الدم الذي رأيت كأنه خضب به جسدك: فإنه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلة أرجوان يضيء في الظلمة.

وأما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء: فإنه يأتيك من ملك
رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتان من لباس الملوك. وأما ما
رأيت من أنك على جبل أبيض: لا تلحقه الخيل. وأما ما رأيت على
رأسك شبيها بالنار: فإنه يأتيك من ملك أرزن من يقوم بين يديك
بإكليل من ذهب مكلل بالدر والياقوت. وأما الطير الذي رأيته
ضرب رأسك بمنقاره: فلست مفسرا ذلك اليوم. وليس بضارك،
فلا توجلن منه. ولكن فيه بعض السخط والإعراض عن تحبه:
فهذا تفسيره رؤياك أيها الملك، وأما هذه الرسل والبرد فإنهم
يأتونك بعد سبعة أيام جميعا فيقومون بين يديك. فلما سمع الملك
ذلك سجد لكباريون ورجع إلى منزله .

فلما كان بعد سبعة أيام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك
فجلس على التخت، وأذن للأشراف، وجاءته الهدايا كما أخبره
كباريون الحكيم. فلما رأى الملك ذلك اشتد عجبه وفرحه من علم
كباريون. وقال: ما وفقت حين قصصت رؤياي على البراهمة
فأمروني بما أمروني به. ولولا أن الله تعالى تداركني برحمته
لكنت قد هلكت وأهلكت؛ وكذلك لا ينبغي لكل أحد أن يسمع إلا من
الأخلاء ذوي العقول. وإن إيراخت أشارت بالخير فقلبته. ورأيت
به النجاح. فضعوا الهدية بين يديها لتأخذ منها ما اختارت. ثم قال
لإيلاذ: خذ الإكليل واحملها واتبعني بها إلى مجلس النساء. ثم إن
الملك دعا إيراخت وحورقناه أكرم نسائه بين يديه. فقال لإيلاذ:
ضع الكسوة والإكليل بين يدي إيراخت لتأخذ أيها شاءت. فوضعت
الهدايا بين يدي إيراخت. فأخذت منها الإكليل، وأخذت حورقناه
كسوة من أفخر الثياب وأحسنها. وكان من عادة الملك أن يكون
ليلة عند إيراخت وليلة عند حورقناه. وكان من سنة الملك أن
تهيء له المرأة التي يكون عندها في ليلتها أرزا بحلاوة فتطعمه

إياه. فأتى الملك إيراخت في نوبتها. وقد صنعت له أرزا. فدخلت عليه بالصحفة والإكليل على رأسها. فعلمت حورقناه بذلك فغارت من إيراخت. فلبست تلك الكسوة. ومرت بين يدي الملك وتلك الثياب تضيء عليها مع نور وجهها كما تضيء الشمس. فلما رآها الملك أعجبه. ثم التفت إلى إيراخت فقال: إنك جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الكسوة إلي ليس في خزاننا مثلها. فلما سمعت إيراخت مدح الملك لحورقناه وثنائه عليها وتجهيلها هي وذم رأيها أخذها من ذلك الغيرة والغضب. فضربت بالصحفة رأس الملك. فسال الأرز على وجهه. فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ. فقال له: ألا ترى، وأنا ملك العالم، كيف حقرتني هذه الجاهلة، وفعلت بي ما ترى؟ فانطلق بها فاقتلها ولا ترحمها. فخرج إيلاذ من عند الملك وقال: لا أقتاها حتى يسكن عنه الغضب. فالمرأة عاقلة سديدة الرأي من الملكات إلي ليس لها عدل في النساء. وليس الملك بصابر عنها. وقد خلصته من الموت، وعملت أعمالا صالحة. ورجاؤنا فيها عظيم. ولست آمنة أن يقول: لم لم تؤخر قتلها حتى تراجعني؟ فلست قاتلها حتى أنظر رأي الملك فيها ثانية: فإن رأيته نادما حزينا على ما صنع جئت بها حية. وكنت قد عملت عملا عظيما. وأنجيت إيراخت من القتل. وحفظت قلب الملك. واتخذت عند عامة الناس بذلك يدا. وإن رأيته فرحا مستريحا مصوبا رأيته في الذي فعله وأمر به فقتلها لا يفوت. ثم انطلق بها إلى منزله، ووكل بها خادما من أمناؤه، وأمره بخدمتها وحراستها، حتى ينظر ما يكون من أمرها وأمر الملك. ثم خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كالكنيب الحزين. فقال أيها الملك: إني قد أمضيت أمرك في إيراخت. فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب، وذكر جمال إيراخت وحسنها. واشتد أسفه عليها. وجعل يعزي نفسه عنها. ويتجلد وهو مع ذلك يستحي أن يسأل إيلاذ:

أحقاً أمضى أمره فيها أم لا؟ ورجا لما عرف من عقل إيلاذ ألا يكون قد فعل ذلك. ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الذي به، فقال له: لا تهتم ولا تحزن أيها الملك: فإنه ليس في الهم والحزن منفعة. ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه. فاصبر أيها الملك على ما لست بقادر عليه أبداً. وإن أحب الملك حدثته بحديث يسليه. قال: حدثني .

قال إيلاذ: زعموا أن حمامتين ذكرًا وأنثى ملا عشهما من الحنطة والشعير. فقال الذكر للأنثى: إنا إذا وجدنا في الصحارى ما نعيش به فلسنا نأكل مما هاهنا شيئاً. فإذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحارى شيء رجعنا إلى ما في عشنا فأكلناه. فرضيت الأنثى بذلك. وقالت له: نعم ما رأيت. وكان ذلك الحب ندياً حين وضعاه في عشهما. فانطلق الذكر فغاب. فلما جاء الصيف يبس الحب وانضمر. فلما رجع الذكر رأى الحب ناقصاً. فقال لها: أليس كنا أجمعنا رأينا على ألا نأكل منه شيئاً؟ فلم أكلته؟ فجعلت تحلف أنها ما أكلت منه شيئاً. وجعلت تعتذر إليه. فلم يصدقها. وجعل ينقرها حتى ماتت. فلما جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندى الحب وامتلاً العش كما كان. فلما رأى الذكر ذلك ندم. ثم اضطجع إلى جانب حمامته وقال: ما ينفعني الحب والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجذك، ولم أقدر عليك، وإذا فكرت في أمرك وعلمت أنني قد ظلمتك، ولا أقدر على تدارك ما فات. ثم استمر على حزنه فلم يطعم طعاماً ولا شراباً حتى مات إلى جانبها. والعاقل لا يعجل في العذاب والعقوبة، ولا سيما من يخاف الندامة، كما ندم الحمام الذكر. وقد سمعت أيضاً أن رجلاً دخل الجبل وعلى رأسه كارة من العدس فوضع الكارة عن ظهره ليستريح. فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفه من العدس وصعد إلى الشجرة. فسقطت من يده حبة فنزل في

طلبها فلم يجدها. وانتثر ما كان في يده من العدس أجمع. وأنت
أيضا أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدع أن تلهو بهن
وتطلب التي لا تجد؟؟؟! فلما سمع الملك ذلك خشي أن تكون
إيراخت قد هلكت. فقال لإيلاذ: لم لا تأتيت وتثبت؟ بل أسرعت عند
سماع كلمة واحدة فتعلقت بها، وفعلت ما أمرتك به من ساعتك؟
قال إيلاذ: إن الذي قوله واحد لا يختلف هو الله الذي لا تبديل
لكلماته ولا اختلاف لقوله. قال الملك: لقد أفسدت أمري وشدت
حزني بقتل إيراخت. قال إيلاذ: إثنان ينبغي لهما أن يحزنا: الذي
يعمل الإثم في كل يوم، والذي لم يعمل خيرا قط: لأن فرحهما في
الدنيا ونعيمهما قليل. وندامت هما إذ يعانين الجزاء طويلة لا
يستطاع إحصاؤها. قال الملك: لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن
على شيء أبدا. قال إيلاذ: اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا: المجتهد
في البر كل يوم، والذي لم يَأْت قط. قال الملك: ما أنا بناظر إلى
إيراخت أكثر مما نظرت قال إيلاذ: اثنان لا ينظران: الأعمى والذي
لا عقل له. وكما أن العمى لا ينظر السماء ونجومها وأرضها ولا
ينظر القرب والبعد، كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من
القبيح ولا المحسن من المسيء. قال الملك: لو رأيت إيراخت
لاشتد فرحي. قال إيلاذ: اثنان هما الفرحان: البصير والعالم. فكما
أن البصير يبصر أمور العالم وما فيه من زيادة ونقصان والقريب
والبعيد، فكذلك العالم يبصر البر والإثم، ويعرف عمل الآخرة،
ويتبين له نجاته، ويهتدي إلى صراط المستقيم. قال الملك: ينبغي
لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء. قال إيلاذ:
اثنان يجب أن نتباعد منهما: الذي يقول لا بر ولا إثم ولا عقاب
ولا ثواب ولا شيء على مما أنا فيه، والذي لا يكاد فيه يصرف
بصره عما ليس له بمحرم ولا أذنه عن استماع السوء، ولا قلبه
عما تهم به نفسه من الإثم والحرص. قال الملك: صارت يدي من

إيراخت صفرا. قال إيلاذ: ثلاثة أشياء أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل، قال الملك: إنك يا إيلاذ لتلقي الجواب. قال إيلاذ: ثلاثة يلقون بالجواب: الملك الذي يعطي ويقسم من خزائنه، والمرأة المهداة التي تهوى من ذوي الحسب، والرجل العالم الموفق للخير .

ثم إن إيلاذ لما رأى الملك أشد به الأمر، قال: أيها الملك إن إيراخت بالحياة. فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه. وقال يا إيلاذ: إنما منعني من الغضب ما أعرف من نصيحتك وصدق حديثك. وكنت أرجو لمعرفتي بعلمك ألا تكون قد قتلت إيراخت. فإنها وإن كانت أتت عظيما وأغلظت في القول فلم تأت عداوة ولا طلب مضرة، ولكنها فعلت ذلك للغيرة. وقد كان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأتحمله، ولكنك يا إيلاذ أردت أن تختبرني وتتركني في شك من أمرها. وقد أخذت عندي أفضل الأيدي. وأنا لك شاكر. فانطلق فأتني بها. فخرج من عند الملك فأتى إيراخت وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك. وانطلق بها إلى الملك. فلما دخلت سجدت له. ثم قامت بين يديه. وقالت: أحمد الله تعالى ثم أحمد الملك الذي أحسن إلي: قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلا بعده، فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته، ثم أحمد إيلاذ الذي آخر أمري، وأنجاني من الهلكة، لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرمه جوهره ووفاء عهده. وقال الملك لإيلاذ: ما أعظم يدك عندي وعند إيراخت وعند العامة: إذ قد أحيتها بعد ما أمرت بقتلها: فأنت الذي وهبتها لي اليوم: فإني لم أزل واثقا بنصيحتك وتدبيرك. وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيما. وأنت محكم في ملكي تفعل فيه بما ترى، وتحكم عليه بما تريد. فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بك. قال إيلاذ: أدام الله لك أيها الملك الملك والسرور.

فلست بمحمود على ذلك. فإنما أنا عبدك. لكن حاجتي ألا يعجل الملك في الأمر الجسيم الذي يندم على فعله، وتكون عاقبته الغم والحزن. ولا سيما في مثل هذه الملكة الناصحة المشفقة التي لا يوجد في الأرض مثلاً: فقال الملك بحق قلت يا إيلاذ، وقد قبلت قولك، ولست عاملاً بعدها عملاً صغيراً ولا كبيراً، فضلاً عن مثل هذا الأمر العظيم الذي ما سلمت منه، إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد إلى ذوي العقول ومشاورة أهل المودة والرأي. ثم أحسن الملك جائزة لإيلاذ، ومكنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبائه فأطلق فيهم السيف، وقرت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته، وحمدوا الله وأثنوا على كباريون بسعة علمه وفضل حكمته: لأنه بعلمه خلص الملك ووزيره الصالح وامراته الصالحة.

باب الجرذ والسنور

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل رجل كثر أعدؤه وأحذقوا به من كل جانب فأشرف معهم على الهلاك فالتمس النجاة وا لمخرج بموالة بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ثم وفي لمن صالحه منهم. قال الفيلسوف: إن المودة والعداوة لا تثبتان على حالة واحدة أبداً. وبما حالت المودة إلى العداوة وصارت العداوة ولاية و صداقة. ولهذا حوادث وعلل وتجارب وذو الرأي يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأياً جديداً: أما من قبل العدو فبالأسوأ وأما من قبل الصديق فبالاستئناس ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوه من

مقاربتة والاستنجد به على دفع مخوف أو جر مرغوب. ومن
عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته. ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور
حين وقعا في الورطة فنجوا باصطلاحهما جميعاً من الورطة
والشدة قال الملك: وكيف كان ذلك قال بيديا: زعموا أن شجرة
عظيمة كان في أصلها جحر سنور يقال له رومي وكان قريباً منه
جحر جرذ يقال له فريدون وكان الصيادون كثيراً يتداولون ذلك
المكان يصيدون فيه الوحش والطير فنزل ذات يوم صياد فنصب
حبالته قريباً من موضع رومي فلم يلبث أن وقع فيها. فخرج
الجرذ يدب، ويطلب ما يأكل، وهو حذر من رومي فبينما هو
يسعى إذ بصر به في الشراك، فسرّ واستبشر، ثم التفت فرأى خلفه
ابن عرس، يريد أخذه، وفي الشجرة بوماً، يريد اختطافه، فتحير
في أمره، وخاف إن رجع وراءه أخذه ابن عرس، وإن ذهب يميناً
أو شمالاً اختطفه البوم، وإن تقدم أمامه افترسه السنور. فقال في
نفسه: هذا بلاء قد اكتفني، وشرور تظاهرت عليّ، ومحض قد
أحاطت بي. وبعد ذلك فمعي عقلي، فلا يفزعني أمري، ولا يهولني
شأني، ولا يلحقني الدهش، ولا يذهب قلبي شعاعاً: فالعقل لا
يفرق عند سداد رأيه ولا يعزب عنه ذهنه على حال. وإنما العقل
شبيه بالبحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي
مجهوده فيهلكه، وتحقق الرجاء لا ينبغي أن يبلغ منه مبلغاً يبطره
ويسكره: فيعمى عليه أمره ولست أرى لي من هذا البلاء مخلصاً
إلا مصالحة السنور: فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي
أو بعضه ولعل إن سمع كلامي الذي أكلّمه به، ووعى عني فصيح
خطابي، ومحض صدقي الذي لا خلاف فيه، ولا خداع معه ففهمه،
وطمع في معونتي إياه، نخلص جميعاً.

ثم إن الجرذ دنا من السنور فقال له: كيف حالك؟ قال له السنور:
كما تحب: في ضنك وضيق قال: وأنا اليوم شريكك في البلاء،

ولست أرجو لنفسي خلاصاً إلا بالذي أرجو لك فيه الخلاص
وكلامي هذا ليس فيه كذب ولا خديعة وابن عرس ها هو كامنٌ
لي، واليوم يرصدني وكلاهما لي ولك عدوٌّ فإن جعلت لي الأمان،
قطعت حبائلك، وخلصتك من هذه الورطة فإذا كان ذلك تخلص كل
واحد منا بسبب صاحبه: كالسفينة والركاب في البحر: فبالسفينة
ينجون وبهم تنجو السفينة. فلما سمع السنور كلام الجرذ وعرف
أنه صادق قال له: إن قولك هذا لشبيه بالحق وأنا أيضاً راغب
فيما أرجو لك ولنفسي به الخلاص. ثم إنك إن فعلت ذلك فسأشكر
لك ما بقيت قال الجرذ: فإني سأدنو منك فأقطع الحبائل كلها إلا
حبلًا واحداً أبقيه لأستوثق لنفسي منك ثم أخذ في قرض حبائله ثم
إن اليوم وابن عرس لما رأيا دنو الجرذ من السنور أيسا منه
وانصرفا ثم إن الجرذ أبطأ على رومي قطع الحبائل فقال له: مالي
لا أراك مجدداً في قطع حبائلي فإن كنت قد كنت ظفرت بحاجتك:
فتغيرت عما كنت عليه وتوانيت في حاجتي فما ذلك من فعل
الصالحين: فإن الكريم لا يتوانى في حق صاحبه. وقد كان لك في
سابق مودتي من الفائدة والنفع ما قد رأيت. وأنت حقيق أن
تكافئني بذلك ولا تذكر العداوة التي بيني وبينك: فالذي حدث بيني
وبينك من الصلح حقيق أن ينسيك ذلك مع ما في الوفاء من
الفضل والأجر وما في الغدر من سوء العاقبة: فإن الكريم لا يكون
إلا شكوراً غير حقوق تنسيه الخلعة الوحدة من الإحسان خلال
الكثيرة من الإساءة وقد يقال: إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر ومن
إذا تضرع إليه وسئل العفو فلم يرحم ولم يعف فقد غدر قال
الجرذ: إن الصديق صديقان: طائع ومضطر وكلاهما يلتصقان
المنفعة ويحترسان من المضرة فأما الطائع فيستترسل إليه ويؤمن
في جميع الأحوال وأما المضطر ففي بعض الأحوال يستترسل إليه
وفي بعضها يتحذر منه. ولا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجاته

لبعض ما يتقي ويخاف وليس عاقبة التواصل من المتواصل إلا
طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله وأنا واف لك بما جعلت لك
ومحترس منك مع ذلك من حيث أخافك تخوفاً أن يصيبني منك ما
الجانبي خوفه إلى مصالحتك وأجأك إلى قبول ذلك مني: فإن لكل
عمل حيناً. فما لم يكن منه في حينه فلا حسن لعاقبته. وأنا قاطع
حبائك كلها غير أنني تارك عقدة واحدة أرتهنك بها ولا أقطعها إلا
في الساعة التي أعلم أنك فيها عني مشغول: وذلك عند معاينتي
الصيد. ثم إن الجرذ أخذ في قطع حبائل السنور. فبينما هو كذلك
إذ وافى الصيد فقال له السنور: الآن جاء الجد في قطع حبائلي.
فأجهد الجرذ نفسه في القرض حتى إذا فرغ وثب السنور إلى
الشجرة على دهش من الصيد ودخل الجرذ بعض الأحجار وجاء
الصيد فأخذ حبائله مقطعة، ثم انصرف خائباً. ثم إن الجرذ خرج
بعد ذلك، وكره أن يدنو من السنور، فناداه السنور: أيها الصديق
الناصح، ذو البلاء الحسن عندي، ما منعك من الدنو إليّ، لأجازيك
بأحسن ما أسديت إليّ، هلمّ، إليّ ولا تقطع إخائي: فإنه من اتخذ
صديقاً، وقطع إخاءه، وأضاع صداقته، حُرِمَ ثمرة إخائه، وأيس
من نفعه الإخوان والأصدقاء. وإن يدك عندي لا تنسى، وأنت
حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك مني ومن إخواني وأصدقائي. ولا
تخافن مني شيئاً. واعلم أن ما قبلي لك مبدول. ثم حلف واجتهد
على صدقه فيما قال. فناداه الجرذ: ربّ صداقة ظاهرة باطنها
عداوة كامنة. وهي أشد من العداوة الظاهرة. ومن لم يحترس
منها، وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه
النعاس فيستيقظ تحت فراسن الفيل، فيدوسه ويقتله. وإنما سمي
الصديق صديقاً: لما يرجى من نفعه، وسمي العدو عدواً: لما
يخاف من ضرره. والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة،
وإذا خاف ضرر الصديق أظهر له العداوة. ألا ترى؟ تتبع البهائم

أمهاتها رجاء ألبانها، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها. وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله، فلم يخف شرّه: لأن أصل أمره لم يكن عداوة. فأما من كان أصل أمره عداوة جوهريّة، ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك، فإنه إذا زالت الحاجة التي حملته على ذلك، زالت صداقته، فتحوّلت عداوة وصار إلى أصل أمره: كالماء الذي يسخن بالنار، فإذا رفع عنها عاد بارداً. وليس من أعدائي عدوّ أضر لي منك. وقد اضطرني وإياك وإلى ما أحدثنا من المصالحة. وقد ذهب الأمر الذي احتجت إليّ واحتجت إليك فيه، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة. ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي، ولا للذليل في قرب العدو العزيز. ولا أعلم لك قبلي حاجة، وليس عندي بك ثقة: فإني قد علمت أن الضعيف المحترس من العدو القوي أقرب إلى السلامة من القوي إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه. والعاقل يصالح عدوه إذا اضطر إليه، ويصانعه، ويظهر له ودّه، ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بداً، ثم يعجل الانصراف عنه، حين يجد إلى ذلك سبيلاً. وأعلم أن سريع الاسترسال لا تقال عثرته. والعاقل يفي لمن صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه، ولا يثق به كل الثقة، ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه. وينبغي أن يبعد عنه ما استطاع. وأنا أودك من بعيد، وأحب لك من البقاء والسلامة، ما لم أكن أحبه لك من قبل. ولا عليك أن تجازيني على صنيعي إلا بمثل ذلك: إذ لا سبيل إلى اجتماعنا والسلام.

باب ابن الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبیدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل أهل التّرات الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض. قال بیدبا: زعموا أن ملكاً من ملوك الهند كان يقال له يريدون، وكان له فرخ وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق، وكان الملك بهما معجباً، فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته، وأمرها بالمحافظة، عليهما. واتفق أن امرأة الملك ولدت غلاماً، فألف الفرخ الغلام. وكلاهما طفلان يلعبان جميعاً، وكان فنزة يذهب إلى الجبل كل يوم فيأتي بفاكهة لا تعرف فيطعم ابن الملك شطرها. ويطعم فرخه شطرها. فأسرع ذلك في نشأتها وزاد في شبابهما وبان عليهما أثره عند الملك: فازداد لفنزة إكراماً وتعظيماً ومحبة حتى إذا كان يوم من الأيام وفنزة غائب في اجتناء الثمرة وفرخه في حجر الغلام ذرق في حجره فغضب الغلام وأخذ الفرخ فضرب به الأرض فمات. ثم إن فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولاً فصاح وحزن وقال: قبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ويل لمن ابتلى بصحبة الملوك الذين لا حمي لهم ولا حرمة ولا يحبون أحد ولا يكرم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من غناه واحتاجوا إلى ما عنده من علم: فيكرمونه لذلك فإذا ظفروا بحاجتهم منه فلا ود ولا إخاء ولا إحسان ولا غفران ذنب ولا معرفة حق هم الذين أمرهم مبني على الرياء والفجور. وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم. ومنهم هذا الكفور الذي لا رحمة له الغادر بأليفه وأخيه. ثم وثب في شدة حنقه على وجه الغلام ففقا عينه، وطار فوق على شرفة المنزل. ثم إنه بلغ الملك ذلك، فجزع أشد الجزع، ثم طمع أن يحتال له فوقف قريباً منه وناداه وقال له: إنك آمن فنزل يا فنزة. فقال له: أيها الملك إن الغادر مأخوذ بغدره وإنه إن أخطأه عاجل العقوبة لم يخطئه الآجل

حتى إنه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب وإن ابنك غدر بابني،
فعلت له العقوبة. قال الملك: لعمرى قد غدرنا بابنك، فانتقمت
منا: فليس لك قبلنا ولا لنا قبلك وتر مطلوب. فارجع إلينا آمناً. قال
فنزة: لست برافع إليك أبداً فإن ذوي الرأي قد نهوا عن قرب
الموتور فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمه إياك إلا وحشة
منه، وسوء ظن به: فإنك لا تجد للحقود الموتور أماناً هو أوثق
لك من الذعر منه ولا أجود من البعد عنه ولا أحترس منه أولى.
وقد كان يقال: إن العاقل يعد أبويه أصدقاء والأخوة رفقاء
والأزواج ألقاء والبنين ذكراً، والبنات خصماء والأقارب غرماء
ويعد نفسه فريداً. وأنا الفريد الوحيد الغريب الطريد قد تزودت من
عنكم من الحزن عبناً ثقيلاً لا يحمله معي أحد. وأنا ذاهب. فعليك
مني السلام.

قال الملك: إنك لو لم تكن اجتزيت منا فيما صنعناه بك، بل كان
صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر كان الأمر كما ذكرت. وأما
إذا كنا نحن بدأنك، فما ذنبك؟ وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ هلم
فارجع: فإنك آمن. قال فنزة: اعلم أن الأحقاد لها في القلوب
مواقع ممكنة موجهة. فالألسن لا تصدق في خبرها عن القلوب،
والقلب أعدل شهادة من اللسان على القلب. وقد علمت أن قلبي لا
يشهد للسانك، ولا قلبك للساني. قال الملك: ألم تعلم أن الضغائن
ولأحقاد تكون بين كثير من الناس: فمن كان ذا عقل كان على
إماتة الحقد أحرص منه على تربيته. قال فنزة: إن ذلك لكما
ذكرت، ولكن ليس ينبغي لذي الرأي مع ذلك أن يظن أن الموتور
الحقود ناس ما وتر به، مصروف عنه فكره فيه. وذو الرأي
يتخوف المكر والخديعة والحيل ويعلم أن كثيراً من العدو لا
يستطاع بالشدة والمكابرة، حتى يصاد بالرفق والملاينة، كما
يصاد الفيل الوحشي بالفيل الداجن. قال الملك: إن العاقل الكريم لا

يترك إلفه، ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ، وإن هو خاف على نفسه، حتى إن هذا الخلق يكون قي أوضع الدواب منزلة: فقد علمت أن اللعابين يلعبون بالكلاب، ثم يذبحونها ويأكلونها. ويرى الكلب الذي قد ألفهم ذلك، فلا يدعوهم إلى مفارقتهم، ولا يمنعه من إلفته إياهم. قال فنزة: إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت. فأخوفها وأشدّها ما كان في أنفس الملوك: فإن الملوك يدينون بالانتقام، ويرون الدرك والطلب بالوتر مكرمة وفخراً. وإن العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن فإنما مثل الحقد في القلب، إذا لم يجد محركاً، مثل الجمر المكنون، ما لم سجد حطباً، فليس ينفك القد متطلعاً إلى العلل، كما تبتغي النار الحطب فإذا وج علة استعر استعار النار، فلا يطفئه حسن كلام، ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة، ولا شيء دون تلف الأنفس. مع أنه رب واطر يطمع في مراجعة الموتور بما يرجو أن يقدر عليه من النفع له، والدفع عنه. ولكني أنا أضعف عن أن أقدر على شيء يذهب به ما في نفسك. ولو كانت نفسك منطوية لي على ما تقول ما كان ذلك عني مغنياً ولا أزل في خوف ووحشة وسوء ظن، ما اصطحبنا. فليس الرأي بيني وبينك إلا الفراق. وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك: لقد علمت أنه لا يستطيع أحد لأحد ضرراً ولا نفعاً، وأنه لا شيء من الأشياء صغيراً ولا كبيراً يصيب أحد ألا بقضاء وقدر معلوم. وكما أن خلق ما يخلق، وولادة ما يولد، وبقاء ما يبقى ليس إلى الخلاق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى وهلاك ما يهلك. وليس لك في الذي صنعت بابني ذنب، ولا لا بني فيما صنع بابني ذنب. إنما كان ذلك كله قدراً مقدوراً، وكلانا له علة: فلا نؤاخذ بما به القدر. قال فنزة: إن القدر لكما ذكرت، لكن لا يمنع ذلك الحازم من توقى المخاوف، والاحتراس من المكاره. ولمنه يجمع تصديقاً

بالقدر وأخذاً بالحزم والقوة. وأنا أعلم أنك تكلمني بغير ما في نفسك. والأمر بيني وبينك غير صغير: لأن ابنك قتل ابني، وأنا فقأت عين ابنك، وأنت تريد أن تشتفي بقتلي، وتخلني عن نفسي، والنفس تأبى الموت. وقد كان يقال: الفاقة بلاء والحزن بلاء وقرب العدو بلاء وفراق الأحبة بلاء والسقم بلاء والهرم بلاء، ورأس البلايا كلها الموت. وليس أحد بأعلم بما في نفس الموجه الحزين ممن ذاق مثل ما به. فأنا بما في نفسي عالم بما نفسك: للمثل الذي عندي من ذلك. ولا خير لي في صحبتك: فإنك لن تتذكر صنيعي بابنك، ولن أتذكر صنيع ابنك بابني، إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييراً.

قال الملك: لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه، وينساه ويهمله، حتى لا يذكر منه شيئاً، ولا يكون له في نفسه موقع. قال فنزة: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة، إن هو حرص على المشي فلا بد أنه لا يزال يشتكي قرحته، والرجل الأرمد العين إذا استقبل بها الريح، تعرض لأن تزداد رمداً. وكذلك الوائر إذا دنا من الموتور، فقد عرض نفسه للهلاك. ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف، وتقدير الأمور وقلة الاتكال على الحول والقوة، وقلة الاغترار بمن لا يأمن: فإنه من اتكل على قوته، فحمله ذلك على أن يسك الطريق المخوف، فقد سعى في حتف نفسه. ومن لا يقدر لطاقته طعامه وشرابه وحمل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه. ومن لا يقدر لقمته، وعظمها فوق ما يسع فوه، فربما غص بها فمات. ومن اغتر بكلام عدوه، وانخدع له وضيع الحزم، فهو أعدى الحزم لنفسه من عدوه. وليس لأحد النظر في القدر الذي لا يدري ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه، ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة ومحاسبة نفسه في ذلك. والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع، ولا يقيم

على خوف وهو يجد عنه مذهباً. وأنا كثير المذاهب وأرجو ألا
أذهب وجهاً ألا أصبت فيه مت يغنيني: فإن خلاً خمساً من
تزودهن كفينه في كل وجه، وأنسنة في غربة، وقربن له البعيد،
وأكسبته المعاش الإخوان: أولهن كف الأذى والثانية حسن الأدب،
والثالثة مجانية الريب والرابعة كرم الخلق، والخامسة النبل في
العمل. وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال
والأهل والولد والوطن: فإنه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو
عن النفس خلفاً. وشر المال ما لا إنفاق منه وشر الأزواج التي لا
تواتي بعلمها، وشر الولد العاصي العاق لوالديه وشر الإخوان
الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذي يخافه
البريء، ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشر البلاد بلاد بلا
خصب فيها ولا أمن، وإنه لا أمن لي عندك أيها الملك ولا طمأنينة
لي في جوارك. وثم ودع الملك وطار. فهذا مثل ذوي الأوتار الذين
لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض.

باب الأسد والشغبر الناسك وهو ابن آوى

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب
لي مثل الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم أو
جفوة من غير ذنب. قال الفيلسوف: إن الملك لو لم يراجع من
أصابته منه جفوة عن ذنب أو عن غير ذنب، ظلم أولم يظلم لأضر
ذلك ويخبر ما عنده من المنافع فإن كان ممن يوثق به في رأيه
وأمانته، فإن الملك حقيق بالحرص على مراجعته: فإن الملك لا
يستطاع ضبطه إلا مع ذوي الرأي وهم الوزراء والأعوان إلا

بالمودة والنصيحة، ولا مودة ولا نصيحة إلا لذوي الرأي
والعفاف. وأعمال السلطان كثيرة، والذين يحتاج إليهم من العمال
والأعوان كثيرون. ومن يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة
والعفاف قليل. والمثل في ذلك مثل الأسد وابن آوى. قال الملك:
وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ابن آوى كان يسكن في بعض الدحال
وكان متزهداً متعافاً، مع بنات آوى وذئاب وثعالب. ولم يكن
يصنع ما يصنعن، ولا يغير كما يغيرن، ولا يهريق دماً ولا يأكل
لحماً. فخاصمه تلك السباع، وقلن لا نرضى بسيرتك و لا رأيك
الذي أنت عليه من تزهدك: مع أن تزهدك لا يغني عنك شيئاً.
وأنت لا تستطيع أن تكون إلا كأحدنا: تسعى معنا، وتفعل فعلنا فما
الذي كفك عن الدماء وعن أكل اللحم؟ قال ابن آوى: إن صحبتي
إياكن لا تؤثمني إذا لم أوثم نفسي: لأن الآثام ليست من قبل
الأماكن والأصحاب، ولكنها من قبل القلوب والأعمال. ولو كان
صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحاً، وصاحب المكان
السيء يكون عمله فيه سيئاً، كان حينئذ من قتل الناسك في
محرابه لم يَأثم، ومن استحياه في معركة القتال أثم. وإني إنما
صحبتكن بنفسي، ولم أصحبكن بقلبي وأعمالي: لأنني أعرف ثمرة
الأعمال: فلزمت حالي: وثبت ابن آوى على حاله تلك واشتهر
بالنسك والتزهد حتى بلغ ذلك أسداً كان ملك تلك الناحية فرغب
فيه: لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزهد والأمانة فأرسل
إليه يستدعيه. فلما حضر كلمه وآنسه فوجده في جميع الأمور
وفق غرضه. ثم دعاه بعد أيام إلى صحبتته وقال له: تعلم أن
عمالي كثير وأعواني جم غفير وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج.
وقد بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين فازددت فيك رغبة. وأنا
موليك من عملي جسيماً ورافعك إلى منزلة شريفة وجاعلك من

خاصتي. قال ابن آوى: إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم. وهم أحرى ألا يكرهوا على ذلك أحداً: فإن المكره لا يستطيع البالغة في العمل. وإني لعمل السلطان كاره. وليس لي به تجربة ولا بالسلطان رفق. وأنت ملك السباع وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير فيهم أهل نبل وقوة ولهم على العمل حرص وعندهم به وبالسلطان رفق: فإن استعملتهم أغنوا عنك واغتبطوا لأنفسهم بما أصابهم من ذلك. قال الأسد: دع عنك هذا: فإني غير معفيك من العمل. قال ابن آوى: إنما يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما: إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته وإما مغفل لا يحسده أحد. فن أراد أن يخدم السلطان بالصدق والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته وحينئذ قل أن يسلم على ذلك: لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد. أما الصديق فينافسه في منزلته ويبغى عليه فيها ويعاديه لأجلها وأما عدو السلطان فيضطغن عليه لنصيحته لسلطانه وإغناؤه عنه. فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرض للهلاك. قال الأسد: لا يكونن بغى أصحابي عليك وحسدهم إياك مما يعرض في نفسك: فأنت معي وأنا أكفيك ذلك وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان على قدر همتك. قال ابن آوى: إن كان الملك يريد الإحسان إلي فليدعني في هذه البرية أعيش آمناً قليل الهم راضياً بعيشي من الأذى والخوف في ساعة واحدة ما لا يصل إلى غيره في طول عمره وإن قليلاً من العيش في آمن وطمأنينة خير من كثير من العيش في خوف ونصب. قال الأسد: قد سمعت مقالتك، فلا تخف شيئاً مما أراك تخاف منه. وست أجد بداً من الاستعانة بك في أمري. قال ابن آوى: أنا إذا أبى الملك إلا ذلك فليعجل لي عهداً إن بغى على أحد من أصحابه عنده، ممن هو فوقى: مخافة على منزلته، أو ممن

هو دون: لينازعني في منزلتي فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه،
أو على لسان غيره ما يريد به تحميل الملك على ألا يعجل في أمر
وأن يتثبت فيما يرفع إليه ويذكر عنده من ذلك ويفحص عنه ثم
ليصنع ما بدا له. فإذا وثقت منه بذلك أعنته بنفسه فيما يحب
وعملت له فيما أولاني بنصيحة واجتهاد وحرصت على ألا أجعل
له على نفسي سبيلاً. قال الأسد: لك ذلك على وزيادة. ثم ولاه
خزائنه واختص به دون أصحابه وزاد في كرامته. فلما رأى
أصحاب الأسد ذلك غاظهم وساءهم؟ فأجمعوا كيدهم، واتفقوا كلهم
على أن يحملوا عليه الأسد وكلن الأسد قد استطاب لحماً فعزل
منه مقدراً، وأمره بالاحتفاظ به، وأن يرفعه في أحسن موضع
طعامه وحملوه إلى بيت ابن آوى، فخبئوه فيه، ولا علم له به، ثم
حضرُوا يكذبونه إن جرت في ذلك حال. فلما كان من الغد ودعا
الأسد بغدائه، فقد ذلك اللحم، فالتمسهُ ولم يجده، وابن آوى لم
يشعر بما صنع في حقه من المكيدة. فحضر الذين عملوا المكيدة،
وقعدوا في المجلس. ثم إن الملك سأل عن اللحم، وشدّد فيه، وقي
المسألة عنه، فنظر بعضهم إلى بعض، فقال أحدهم قول المخبر
الناصح: إنه لا بد لنا من أن نخبر الملك بما يضره وينفعه، وإن
شق ذلك على من يشق عليه. وإنه بلغني أن ابن آوى هو الذي
ذهب باللحم إلى منزله. قال الآخر: لا أراه يفعل هذا، ولكن انظروا
وفحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة. فقال الآخر: لعمرى ما تكاد
السرائر تعرف، وأظنكم إن فحصتم عن هذا وجدتم اللحم ببيت ابن
آوى، وكل شيء يذكر من عيوبه وخيائنه نحن أحق أن نصدقه.
قال الآخر: لئن وجدنا هذا حقاً فليست بالخيانة فقط، ولكن مع
الخيانة كفر النعمة، والجرأة على الملك. قال الآخر: أنتم أهل
العدل والفضل، لا أستطيع أن أكذبكم، ولكن سيبين هذا لو أرسل
إلى الملك من يفتشه. قال الآخر: إن كان الملك مفتشاً منزله

فليعجل: فإن عيونه وجواسيسه مبعوثون بكل مكان. ولم يزالوا في الكلام و أشباهه، حتى وقع في نفس الأسد ذلك، فأمر بابتن آوى فحضر فقال له: أين اللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به، قال: دفعته إلى صاحب الطعام ليقربه إلى الملك. فدعا الأسد بصاحب الطعام، وكان ممن وبائع مع القوم على ابن آوى. فقال: ما دفع إلى شيئاً. فأرسل الأسد أميناً إلى بيت ابن آوى ليفتشه، فوجد فيه ذلك اللحم، فأتى به الأسد. فدنا من الأسد ذنب لم يكن تكلم في شيء من ذلك. وكان يظهر أنه من العدول الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون، حتى يتبين لهم الحق. فقال: بعد أن اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفون عنه: فإنه إن عفا عنه لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن، ولا ذنب مذنب. فأمر الأسد بابتن آوى أن يخرج، ويحتفظ به. فقال بعض جلساء الملك: إني لأعجب من رأي الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفى عليه أمر هذا، ولم يعرف خبثه ومخادعته؟ وأعجب من هذا أني أراه سيصفح عنه، بعد الذي ظهر منه. فأرسل الأسد بعضهم رسولاً إلى ابن آوى يلتبس منه العذر، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها فغضب الأسد من ذلك وأمر بابتن آوى أن يقتل. فعلمت أم الأسد أنه قد عجل في أمره، فأرسلت إلى الذين أمروا بقتله أن يؤخروه، ودخلت على ابنها، فقالت: يا بني ذنب أمرت بقتل ابن آوى؟ فأخبرها بالأمر. فقالت: يا بني عجلت. وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبت. والعجلة لا يزال صاحبها يجتني ثمرة الندامة، بسبب ضعف الرأي. وليس أحد أحوج إلى التؤدة والتثبت من الملوك: فإن المرأة بزوجه، والولد بوالديه، والمتعلم بالمعلم والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامّة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعمل، والعقل بالتثبت والأناة، ورأس الكل الحزم، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه، وإنزالهم منازلهم

على طبقاتهم، واتهامه بعضهم على بعض. فإنه لو وجد بعضهم إلى هلاك بعض سبيلاً لفعل. وقد جربت ابن آوى، وبلوت رأيه وأمانته ومروءته، ثم لم تزل مادحاً له راضياً عنه. وليس ينبغي للملك أن يخونه بعد ارتضائه إياه وائتمانه له، ومنذ مجيئه إلى الآن لم يطلع له على خيانة إلا على العفة والنصيحة. وما كان رأي الملك أن يعجل عليه لأجل طابق لحم. وأنت أيها الملك حقيق أن تنظر في حال ابن آوى: لتعلم أنه لم يكن ليتعرض للحم استودعته إياه. ولعل الملك إن فحص عن ذلك ظهر له أن ابن آوى له خصماء هم الذين أتمروا بهذا الأمر. وهم الذين ذهبوا باللحم إلى بيته فوضعوه فيه: فإن الحدأة إذا كان في رجلها قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير، والكلب إذا كان معه عظم اجتمع عليه الكلاب. وابن آوى منذ كان إلى اليوم نافع، وكان محتملاً لكل ضرر في جنب منفعة تصل إليك، ولكل عناء يكون لك فيه راحة، ولم يطوى دونك سراً.

فبينما أم الأسد تقص عليه هذه المقالة، إذ دخل على الأسد بعض ثقاته، فأخبره ببراءة ابن آوى. فقالت أم الأسد، بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى: إن الملك حقيق ألا يرخص لمن سعى به لئلا يتجرءوا إلى ما هو أعظم من ذلك بل يعاقبهم عليه لكي لا يعودوا إلى مثله: فإنه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمر الكفور للحسنى، الجريء على الغدر، الزاهد في الخير الذي لا يوقن بالآخرة. وينبغي أن يجزى بعمله، وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة، ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير. والأولى لك أن تراجع ابن آوى، وتعطف عليه، ولا يونسك من مناصحته ما فرط منك إليه من الإساءة: فإن من الناس من لا ينبغي تركه على حال من الأحوال، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى

والاحتمال للإخوان والأصحاب وإن ثقلت عليه منه المئونة. وأما من ينبغي تركه فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد من الرحمة والورع، واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها. وقد عرفت ابن آوى وجربته وأنت حقيق بمواصلته. فدعى الأسد بابن آوى وأعتذر إليه مما كان منه ووعدته خيراً، وقال: إني معتذر إليك وراذك إلى منزلتك. فقال ابن آوى: إن شر الأخلاء من التمس منعة نفسه بضر أخيه، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل إتباع هواه. وكثيراً ما يقع ذلك بين الأخلاء. وقد كان من الملك إلى ما علم فلا يغلظن على نفسه ما أخبره به إني به غير واثق، وإنه لا ينبغي لي أن أصحبه: فإن الملوك لا ينبغي أن يصحبوا من عاقبوه أشد العقاب، ولا ينبغي لهم أن يرفضوه أصلاً: فإن ذا السلطان إذا عزل كان مستحقاً للكرامة في حالة إبعاده والإقصاء له. فلم يلتفت الأسد إلى كلامه. ثم قال له: إني قد بلوت طباعك وأخلاقك، وجربت أمانتك ووفاءك وصدقك، وعرفت كذب من تمحل الحيلة لتحملني عليك. وإني منزلك من نفسي منزلة الأخيار الكرماء، والكريم تنسيه الخلعة الواحدة من الإحسان، الخلال الكثيرة من الإساءة. وقد عدنا إلى الثقة بك، فعد إلى الثقة بنا: فإن لنا ولك بذلك غطة وسروراً. فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يلي، وضاعف له الملك الكرامة، ولم تزده الأيام إلا تقرباً من السلطان.

باب السائح والصائغ

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة. وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس البر والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حرمة، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذٍ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ولا يضعوه عند من لا يحتمله. ولا يقوم بشكره، ولا يصطنع أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره. ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريباً لقربته، إذا كان غير محتمل للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورغدهم للبعيد، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه: لأنه يكون حينئذٍ عارفاً بحق ما اصطنع إليه مؤدياً لشكر ما أنعم عليه، محموداً بالنصح معروفاً بالخير، صدوقاً عارفاً، مؤثراً لحميد الفعال والقول. وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها، كان للمعروف موضعاً، ولتقريبه واصطناعه أهلاً: فإن الطيب الرفيق العاقل لا يقدر إلى مداواة المريض إلا بعد النظر إليه والجس لعروقه ومعرفة طبيعته وسبب علته، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته. فكذلك العاقل: لا ينبغي له أن يصطفي أحداً، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة: فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطراً في ذلك ومشرفاً منه على هلاك وفساد. ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله في طبائعه فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة. وربما حذر العاقل الناس ولم يأمن على نفسه أحداً منهم. وقد يأخذ ابن عرس فيدخله في كفه ويخرجه من الآخر، كالذي

يحمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئاً انتفع به، ومطعمه منه. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم، ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم. وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة احتفروا ركية فوق وقع فيها رجل صائغ وحية وقرد وببر، ومر بهم رجل سائح فأشرف على الركية، فبصر بالرجل والحية والببر والقرد ففكر في نفسه، وقال: لست أعمل لآخرتي عملاً أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء. فأخذ حبلاً وأدلاه إلى البئر فتعلق به القرد لخفته فخرج. ثم دلاه ثانية، فالتفت به الحية فخرجت. ثم دلاه ثالثاً فتعلق به الببر فأخرجه. فشكرن له صنيعه. وقلن له: لا تخرج هذا الرجل من الركية: فإنه ليس شيء أقل شكراً من الناس ثم هذا الرجل خاصة. ثم قال له القرد: إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها: نوادرخت. فقال له الببر: أنا أيضاً في أجمة إلى جانب تلك المدينة. قالت الحية: أنا أيضاً في سور تلك المدينة. فإن أنت مررت بنا يوماً من الدهر، واحتجت إلينا فصوت علينا حتى نأتيك فنجزيك بما أسديت إلينا من معروف. فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا له من قلة شكر الإنسان، وأدلى الحبل، فأخرج الصائغ، فسجد له، وقال له: لقد أوليتني معروفاً. فإن أتيت يوماً من الدهر لمدينة نوادرخت فاسأل عن منزلي: فأنا رجل صائغ لعلي أكافئك بما صنعت إلي من معروف. فانطلق إلى مدينته وانطلق السائح إلى جانبه. فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له الحاجة إلى تلك المدينة، فانطلق، فاستقبله القرد، فسجد له وقبّل رجليه. واعتذر إليه، وقال: إن القرد لا يملكون شيئاً، ولكن أقعد حتى آتيك. وانطلق القرد، وآتاه بفاكهة طيبة، فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته. ثم إن السائح

انطلق حتى دنا من باب المدينة فاستقبله البير، فخرّ له ساجداً وقال له: إنك قد أوليتني معروفاً. فاطمئن ساعة حتى آتيك.

فانطلق البير فدخل في بعض الحيطان إلى بنت الملك فقتلها، وأخذ حليها، فأتاه بها، من غير أن يعلم السائح من أين هو. فقال في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء، فكيف لو قد أتيت إلى الصائغ فإنه إن كان معسراً لا يملك شيئاً فسيبيع هذا الحلي فيستوفي ثمنه. فيعطيني بعضه، ويأخذ بعضه، وهو أعرف بثمنه.

فانطلق السائح فأتى إلى الصائغ. فلما رآه رحب به وأدخله إلى بيته. فلما بصر بالحلي معه، عرفه وكان هو الذي صاغه لابنة الملك. فقال للسائح: اطمئن حتى آتيك بطعام فليست أَرْضَى لك ما في البيت. ثم خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتي: أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك، فتحسن منزلتي عنده. فانطلق إلى باب الملك، فأرسل إليه: إن الذي قتل ابنتك وأخذ حليها عندي. فأرسل الملك وأتى بالسائح فلما نظر الحلي معه لم يمهله، وأمر به أن يعذب ويطاف به في المدينة، ويصلب. فلما فعلوا به ذلك جعل السائح يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أني أطعت القرد والحية والبير فيما أمرنني به وأخبرنني من قلة شكر الإنسان لم يصير أمري إلى هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول. فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها فعرفته، فاشتد عليه أمره، فجعلت تحتال في خلاصه. فانطلقت حتى لدغت ابن الملك، فدعى الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئاً. ثم مضت الحية إلى أخت لها من الجن، فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف، وما وقع فيه. فرقت له، وانطلقت إلى ابن الملك، وتخايلت له. وقالت له: إنك لا تبرأ حتى يرقيك هذا الرجل الذي قد عاقبتموه ظلماً. وانطلقت الحية إلى السائح فدخلت عليه السجن، وقالت له: هذا الذي كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان:

ولم تطعني. وأتته بورق ينفع من سمّها. وقالت له: إذا جاءوا بك لترقي ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق: فإنه يبرأ. وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه: فإنك تنجوا إن شاء الله تعالى. وإن ابن الملك أخبر الملك أنه سمع قائلاً يقول: إنك لن تبرأ حتى يرقيك هذا السائح الذي حبس ظلماً. فدعا الملك السائح، وأمره أن يرقى ولده. فقال: لا أحسن الرقي، ولكن اسقه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى. فسقاه فبرئ الغلام. ففرح الملك بذلك: وسأله عن قصته، فأخبره. فشكره الملك، وأعطاه عطية حسنة، وأمر بالصائغ أن يصلب. فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح. ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصائغ بالسائح، وكفره له بعد استنقاذه إياه، وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إياه، عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا لما في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه.

باب ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم الملك لبیدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيه وتثبته في الأمور كما يزعمون، فما بال الرجل الجاهل يصيب البلاء والضرر؟ قال بیدبا: كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينه ولا يسمع إلا بأذنيه، كذلك العمل، إنما هو بالحلم والعقل والتثبت، غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك. ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا في طريق واحدة، أحدهم ابن الملك والثاني ابن تاجر والثالث ابن

شريف ذو جمال والرابع ابن أكار. وكانوا جميعاً محتاجين، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد في موضع غربة لا يملكون إلا ما عليهم من الثياب. فبينما هم يمشون إذ فكروا في أمرهم وكان كل إنسان منهم راجعاً إلى طباعه وما كان يأتيه منه الخير: قال ابن الملك: إنما أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر، والذي قدر على الإنسان يأتيه على كل حال، والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور وقال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء وقال ابن الشريف: الجمال أفضل مما ذكرتم. ثم قال ابن الأكار: ليس في الدنيا أفضل من الاجتهاد في العمل فلما قربوا من مدينة يقال لها مطرون، جلسوا في ناحية منها يتشاورون: فقالوا لابن الأكار: انطلق فاكسب لنا باجتهادك طعاماً ليومنا هذا. فانطلق ابن الأكار، وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر فعرفوه أنه ليس في تلك المدينة شيء أعز من الحطب، وكان الحطب منها على فرسخ. فانطلق ابن الأكار فاحتطب طناً من الحطب، وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعاماً وكتب على باب المدينة: عمل يوم واحد إذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم. ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا. فلما كان من الغد: قالوا ينبغي للذي قال إنه ليس شيء أعز من الجمال أن تكون نوبته. فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة، ففكر في نفسه وقال: أنا لست أحسن عملاً فما يدخلني المدينة؟ ثم استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعام، وهم بمفارقتهم. فانطلق حتى أسند ظهره إلى شجرة عظيمة، فغلبه النوم فنام. فمر به رجل من عظماء المدينة فراقه جماله وتوسم فيه شرف النجار فرق له ومنحه خمسمائة درهم. فكتب على باب المدينة: جمال يوم واحد يساوي خمسمائة درهم. وأتى بالدراهم إلى أصحابه. فلما أصبحوا في اليوم الثالث، قالوا لابن التاجر: انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا

هذا شيئاً. فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت إلى الساحل، فخرج إليها جماعة من التجار يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع. فجلسوا يتشاورون في ناحية من المركب، وقال بعضهم لبعض: ارجعوا يومنا هذا لا نشترى منهم شيئاً حتى يكسد المتاع عليهم فيرخسوا علينا، مع أننا محتاجون إليه، وسيرخص. فخالف الطريق وجاء إلى أصحاب المركب، فابتاع منهم ما فيه بمائة ألف دينار نسيئة وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلى مدينة أخرى. فلما سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم، فأربحوه على ما اشتراه مائة ألف درهم، وأحال عليهم أصحاب المركب بالباقي، وحمل ربحه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة: عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم. فلما كان اليوم الرابع قالوا لابن الملك: انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك. فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب لمدينة فجلس على متكأ في باب المدينة، واتفق أن ملك تلك الناحية مات ولم يخلف ولداً ولا أحداً ذا قرابة. فمروا عليه بجنائزة الملك ولم يحزنه وكلهم يحزنون. فأنكروا حاله وشتمه البواب، وقال له: من أنت يا هذا؟ وما يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك؟ وطرده البواب عن الباب فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه. فلما دفنوا الملك ورجعوا بصر به البواب فغضب وقال له: ألم أنك عن الجلوس في هذا الموضع؟ وأخذه وحبسه. فلما كان الغد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون فيمن يملكونه عليهم، وكل منهم يتناول ينظر صاحبه، ويختلفون بينهم. فقال لهم البواب: إني رأيت أمس غلاماً جالساً على الباب، ولم أره يحزن لحزننا، فكلمته فلم يجبني، فطرده عن الباب. فلما عدت رأيته جالساً فأدخلته السجن مخافة أن يكون عيناً. فبعثت أشراف أهل المدينة إلى الغلام فجاءوا به، وسألوه

عن حاله، وما أقدمه إلى مدينتهم. فقال: أنا ابن ملك فويران،
وإنه لما مات والدي غلبني أخي على الملك، فهربت من يده حذراً
على نفسي حتى انتهيت إلى هذه الغاية. فلما ذكر الغلام ما ذكره
من أمره عرفه من كان يغشى أرض أبيه منهم، وأثنوا على أبيه
خيراً. ثم إن الأشراف اختاروا الغلام أن يملكوه عليهم ورضوا به.
وكان لأهل تلك المدينة سنة إذا ملكوا عليهم ملكاً حملوه على فيل
أبيض، وطافوا به حوالى المدينة. فلما فعلوا به ذلك مرّ بباب
المدينة فرأى الكتابة على الباب فأمر أن يكتب: إن الاجتهاد
والجمال والعقل وما أصاب الرجل في الدنيا من خير أو شر إنما
هو بقضاء وقدر من الله عزّ وجل. وقد ازددت في ذلك اعتباراً بما
ساق الله إلي من الكرامة والخير. ثم انطلق إلى مجلسه فجلس
على سرير ملكه وأرسل إلى أصحابه الذين كان معهم فأحضرهم
فأشرك صاحب العقل مع الوزراء، وضمّ صاحب الاجتهاد إلى
أصحاب الزرع، وأمر لصاحب الجمال بمالٍ كثير ثم نفاه كي لا
يفتن به. ثم جمع علماء أرضه وذوي الرأي منهم وقال لهم: أما
أصحابي فقد تيقنوا أن الذي رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير
إنما هو بقضاء الله وقدره، وإنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه،
فإن الذي منحني الله وهياًه لي إنما كان بقدر، ولم يكن بجمال ولا
عقل ولا اجتهاد. وما كنت أرجو إذ طردني أخي أن يصيبني ما
يعيشني من القوت فضلاً عن أن أصيب هذه المنزلة، وما كنت
أؤمل أن أكون بها: لأنني قد رأيت في هذه الأرض من هو أفضل
مني حسناً وجمالاً، وأشدّ اجتهاداً وأسدّ رأياً، فساقني القضاء إلى
أن أعتزرت بقدر من الله، وكان في ذلك الجمع شيخ فنهض حتى
استوى قائماً، وقال: إنك قد تكلمت بكلام كامل عقل وحكمة، وإن
الذي بلغ بك ذلك وفوز عقلك وحسن ظنك، وقد حققت ظننا فيك
ورجاءنا لك. وقد عرفنا ما ذكرت، وصدقناك فيما وصفت. والذي

ساق الله إليك من المُلْك والكرامة كنت أهلاً له، لما قسم الله تعالى لك من العقل والرأي. وإني أسعد الناس في الدنيا والآخرة من رزقه الله رأياً وعقلاً.

وقد أحسن الله إلينا إذ وفق لنا عند موت ملكنا وكرمنا بك. ثم قام شيخ آخر سائح فحمد الله عزّ وجل وأثنى عليه وقال: إني كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحاً، رجلاً من أشراف الناس. فلما بدا لي رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين، فأردت أن أتصدق بأحدهما، وأستبقي الآخر، فأتيت السوق، فوجدت مع رجل من الصيادين زوج هدهد، فساومت فيهما فأبى الصياد أن يبيعهما إلا بدينارين، فاجتهدت أن يبيعهنيهما بدينار واحد فأبى. فقلت في نفسي: أشتري أحدهما وأترك الآخر. ثم فكرت وقلت لعلهما يكونا زوجين ذكراً وأنثى فأفرق بينهما، فأدركني لهما رحمة فتوكلت على الله وابتعتهما بدينارين وأشفقت إن أرسلتهما في أرض عامرة أن يصادا، ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهزال، ولم آمن عليهما الآفات. فانطلقت بهما إلى مكان كثير المرعى والأشجار بعيد عن الناس والعمران، فأرسلتهما، فطارا ووقعا على شجرة مثمرة. فلما صارا في أعلاها شكرا لي، وسمعت أحدهما يقول للآخر: لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذي كنا فيه، واستنقذنا ونجّانا من الهلكة. وإنا لخليقان أن نكافئه بفعله. وإنّ في أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنانير. أفلا ندله عليها فيأخذها؟ فقلت لهما: كيف تدلانني على كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة؟ فقالا: إن القضاء إذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشى البصر وإنما صرف القضاء أعيننا عن الشرك ولم يصرفها عن هذا الكنز. فاحتفرت واستخرجت البرنية وهي مملوءة دنانير، فدعوت لهما بالعافية، وقلت لهما: الحمد لله الذي علّمكما ما لم تعلمّا،

وأنتما تطيران في السماء، وأخبرتما ما تحت الأرض. قالوا لي:
أيها العاقل، أما تعلم أن القدر غالب على كل شيء، ولا يستطيع
أحد أن يتجاوزه. وأنا أخبر الملك بذلك رأيته: فإن أمر الملك أتيته
بالمال فأودعته في خزانته. فقال الملك ذلك لك، وموَفَّر عليك.

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه. قال الملك
للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل
الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه. قال الفيلسوف: إن مثل
ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين. قال الملك: وما مثلهن؟
قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة
طويلة ذاهبة في السماء، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى
رأس تلك النخلة، فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله
تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة: لطول النخلة وسحقها،
فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها، فإذا فقست وأدرك
فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما
ينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن
يرقي إليها فتلقي إليه فراخها. فبينما هي ذات يوم قد أدرك لها
فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة. فلما رأى الحمامة
كنيبة حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين: يا حمامة، ما لي
أراكي كاسفة اللون سيئة الحال؟ فقالت له: يا مالك الحزين، إن
ثعلباً دهيت به كلما كان لي فرخان جاء يهددني ويصيح في أصل
النخلة، فأفرق منه فأطرح إليه فرخي. قال لها مالك الحزين: إذا

أتاك ليفعل ما تقولين فقلولي له: لا ألقى إليك فرخي، فارق إلي
وغرر بنفسك. فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي، طرت عنك ونجوت
بنفسي. فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقه على
شاطئ نهر. فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف، فوقف تحتها، ثم
صاح كما كان يفعل. فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين. قال
لها الثعلب: أخبريني من علمك هذا؟ قالت: علمني مالك الحزين.
فتوجه الثعلب إلى مالك الحزين على شاطئ النهر، فوجده واقفاً.
فقال له الثعلب: يا مالك الحزين: إذا أترك الريح عن يمينك فأين
تجعل رأسك؟ قال: عن شمالي. قال: فإذا أترك عن شمالك فأين
تجعل رأسك. قال: أجعله عن يميني أو خلفي. قال: فإذا أترك الريح
من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله؟ قال: أجعله تحت جناحي.
قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهاى لك.
قال: بلى: قال: فأرني كيف تصنع؟ فلعمري يا معشر الطير لقد
فضلكم الله علينا. إنكن تدرين في ساعة واحدة مثلما ندري في
سنة، وتبلغن ما لا نبلغ، وتدخلن رؤسكن تحت اجنحتكن من البرد
والريح. فهنيئاً لكن فأرني كيف تصنع. فأدخل الطائر رأسه تحت
جناحه فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه. ثم
قال: يا عدوي نفسه، ترى الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة
لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك، حتى يستمكن منك عدوك، ثم
أجهز عليه وأكله.

الخاتمة

فلما انتهى المنطق للملك والفيلسوف إلى هذا المكان سكنت الملك.
فقال له الفيلسوف: أيها الملك عشت ألف سنة، وملكيت الأقاليم
السبعة، وأعطيت من كل شيء سبباً، مع وفور سرورك وقرّة
عين رعيّتك بك، ومساعدة القضاء والقدر لك، فإنه قد كمل فيك

الحلم والعلم. وزكا منك العقل والقول والنية، فلا يوجد في رأيك نقص، ولا في قولك سقط ولا عيب. وقد جمعت النجدة واللين، فلا توجد جباناً عند اللقاء، ولا ضيق الصدر عندما ينوبك من الأشياء. وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور، وشرحت لك جواباً ما سألتني عنه منها فأبلغتك في ذلك غاية نصحي، واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ فطنتي، التماساً لقضاء حقك وحسن النية منك. بأعمال الفكرة والعقل. فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة مع أنه ليس الأمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح، ولا المعلم للخير بأسعد من متعلمه منه. فافهم ذلك أيها الملك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كتاب كليله ودمنة هو كتاب هادف فهو ليس مجرد سرد لحكايات تشتمل على خرافات حيوانية بل هو كتاب يهدف إلى النصح الخلقي والإصلاح الاجتماعي والتوجيه السياسي..